ادوار الخراط

اختناقات العشق والصباح



دار المستقبل العربي

اشتاقات العشق والصبح

ادوار الخراط

اختناقات العشق والصباح



دار المستقبل العربي ١٩٨٣

صمم الغلاف : سعد عبد الوهاب

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

اذا عصى الحلم جعلت الهوى
رَبّاً وان لم يكُ معبودا

ابن بابك

نقطة دم .	(القاهرة / ١٤ فبراير ١٩٧٩)
قبل السقوط .	(القاهرة / ٢٧ فبراير ١٩٧٩)
اقدام العصافير على الرمل .	(اوكسفورد / ١٦ يونيو ١٩٧٩)
على الحافة .	(اوكسفورد / ١٩ يونيو ١٩٧٩)
محطة السكة الحديد (٣) .	(الاسكندرية / ٢ نوفمبر ١٩٧٩)

نقطة دم

رأيت أننى تحت بوابة شاهقة الأركان ، مقوسة السقف ، وحدى . بين أعمدة حجرية سامقة بيضاء مشدودة الجلد ناعمة دسمة اللحم ، فى النور النقى الحاد .

درجات السلم ترتفع أمامى ، عريضة خاوية . أصعد عليها فى الفضاء الفسيح . وقْعُ خطوى له أصداء بين الأعمدة .

وأدخل فى الحلقة الحديدية الضخمة الملتوية القضبان ، تومض ، ويتفصد عليها الندى ، وهى تلف حولى ، مفتولة العضل ، ولاتمسنى . لها صرير متمكن ينبعث من تروس أعرف قوتها وتهديدها ، ولا أراها ، تدور فى عمقٍ مادانحل الارض التى تهتز تحت قدمى .

وأعرف مرة أخرى تلك البهجة والوجل ، الفرح والتشوف ، الرغبة والقلق ، تجيش كلها فى صدر الطفل الذى كنته والذى أنا هو ، معا ، وأنا أضع رجلى فى هذا العالم المفقود .

الحَرّ له قوام كثيف ، يهب بأنفاسه اللافحة من أولى طرقات الحديقة الممتدة أمامى بلا نهاية ، متربة ، مظللة بالشجر .

وفى هذا الصهد الجاف أعرف أننى قد بعدت جدا عن بحر الاسكندرية الفسيح المتقلب بالهواء المبلول . وقد انطبقت علىّ النباتات المزدحمة بحياة حيوانية تطوقنى بأغصان أثيثة متهدلة وساكنة الورق ، الشمس فوقها ثقيلة ، وغريبة .

وأعرف اننى لست طفلا الآن ولكننى لست بعيدا جدا عن ذلك الطفل ، وأعرف وحشة سنوات الشباب الاولى وآمالها الغامضة التى تنوء بقلب لم يتغير .

رائحة الماعز الجبلى تأتى من الحوش الترابى القاحل الذى يمتد ببطء ، متموجا وصلبا من وراء شبكة الاسلاك العالية ، الى الوجار المظلم الفتحة . وذَكَر وحيد ، فارع القرون ، يبدو صغيرا جدا ، وحده ، على قمة كومة من التراب والحجر وكتل الاسمنت .

تتطاير هبات الرائحة الحريفة فى الحر ، تتلوى فى السخونة الراكدة ، كأنها ملموسة باليدين ، عطنة وخشنة . وتهاجمنى رائحة الخروف المربوط بمسمار كبير بارز مفلطح الرأس فى حائط سطح البيت ، والحبل متراخ ساقط على صوفه الملبد ، لاينفك طول أسبوع الآلام قبل العيد الكبير ، والبرسيم الاخضر مرمى أمامه على البلاط .

حذاؤها يقرقع ، بكعبه العريض ، على حبات الحصى . خصرها الدقيق بجانب ذراعى ، تتوتر يدى الى جانبى بحركة بطيئة مقصودة ، لاتلمسه ولاتبتعد عنه .

أزهار الجزورينا الحمراء الدقيقة الهشة مفروشة على جانبى الطريق . ونواصى الشجر تتقد وسط عتمة الخضرة بهذا اللهب الصغير المتناثر ، وأحس تحت حذائى الكبير الواسع قليلا بالفتات الاحمر الجاف .

كانت رسالتها مكتوبة بالقلم الرصاص على الورق المسطر المصفر قليلا والمطوىّ طيتين : « ياصديقى ، ياأعز صديق ، أننى أحتاج الى وجودك الملائكى بجانبى . أنا فى أزمة خانقة لقلبى فأنا أحبه ولايمكن أن أخذله وهو كما تعرف يحبنى ، وأنت صديقنا الوحيد الذى نبيحه أسرار قلبينا . لاأستطيع أن أشرح لك الآن فى هذه الرسالة التى أكتبها بعيدا عن أعين والدىّ ، أتوسل اليك أن تأتى . سأنتظرك فى كازينو الشاى فى حديقة الحيوانات فى ركننا المعهود الذى لاأنساه أبدا والذى كنا نلتقى فيه ثلاثتنا . هل تستطيع أن تأتى ياأعز انسان ؟ غدا ، كالمعتاد ؟ وهل سأستطيع الحياة حتى تأتى ؟ أنا أنتظرك وأصلى لله وللعذراء مريم أن يقوى عزمك حتى أراك » .

« ملحوظة : لاتخبره بشىء حتى نلتقى »

الدموع الناعمة الانحدار على عظام وجهى أحسها وتشايكوفسكى تعزفه « اوركسترا فلسطين السيمفونى » . كان عازف التشيللو الالمانى الملامح المدور الوجه ينظر الى بعينيه اليهودتين الضيقتين ، فيهما سخرية كنت أظنها سخرية منى ، وفيهما حلم مقهور أيضا تخفيه الصنعة ، ولمعة جامحة .

كان قلبى قد أجفل ، وأحسست الدماء كلها تغيض منه ، عندما نادى البوسطجى من تحت « بوسته .. بوسته ! » . وهو يصفق بيديه فى بير السلم . وتردد اسمى ، غريبا فى سمعى كأنه ليس لى ، والبوسطجى ينادى . ونزلت درجات السلم الضيق ، متعثرا ، بالبيجاما والشبشب ، بينما خرجت أمى بجلابية البيت ، وهى تقول : « ياختى .. ! خير ان شاء الله ياربى .. يارب خير ! » .

سافرت من الاسكندرية بقطار الساعة الثامنة صباحا . وقلت لأبى ان الكلية تطلب أوراقاً من مصر ، وللنظر فى طلب المجانية . وقلت لأمى اننى سأعود فى آخر قطار الليلة . وكان فى جيبى نصف جنيه وبضعة قروش أعرف مامعنى اقتطاعها من مصروف البيت .

ووصلت محطة القاهرة فى عز الظهر ، متربا من هباء دخان القطار ومرهقا ولكننى متوفز بنوع من الحيوية العصبية والقلق . ولم يكن بيدى الا نسخة من « الاهرام » ومجلة « جيروزاليم بوست » على غلافها صورة لمظاهرة فلسطينية يضربها الجنود الانجليز ، وعنوان رئيسى عن مستعمرة جديدة لليهود فى الصحراء .

وأحسست بثقل جاكتتى الطويلة الزرقاء الداكنة . كانت أمى قد اشترتها لى رخيصة جدا من أولى شحنات الملابس المستعملة التى أرسلها الامريكان معونة حرب ، وكنت قد علقت عليها الشعار المعدنى المكتوب بالانجليزية « الجلاء ». كانت المحطة مزدحمة وحارة وانا أمر بين صفوف من الجنود الاستراليين ، بقبعاتهم الكبيرة الناعمة الحواف ، جالسين ونائمين على أرض المحطة ، وعلى أكتافهم وبجوارهم بنادقهم القصيرة وربطاتهم الصفراء الملفوفة باحكام ودقة ، صامتين جدا على غير عادتهم ، وجوهم تنطق بالانهاك من قلة النوم بعد اجازة قصيرة كلها شرب رخيص وبغايا رخيصات وقد استسلموا للتعب وللحرب التى أوشكت أن تنتهى . وكان فى جيب جاكتتى طبعة « بنجوين » لمجموعة من الشعر الانجليزى الرومانتيكى بغلاف أزرق خفيف ، مطبوعة فى القاهرة على ورق أصفر جاف بحروف قائمة كبيرة وفيها أخطاء هجائية .

خرجت للميدان الواسع المضطرب الحركة بسيارات الجيش الانجليزى الصفراء المسرعة يقودها جنود كالأطفال بالفانلات على صدورهم المحترقة ، والكاب الكاكى على شعرهم المقصوص ، وعربات الحنطور تجرها خيل ناتئة الضلوع متهدلة الخصى . وسيارات الاجرة المربعة الشكل ، ونساء الفلاحين بقاماتهن المنسرحة المنتصبة يحملن القفف واللفف على رؤوسهن القوية يخترقن سيل المرور المزدحم .

وأخذت الترام المفتوح من باب الحديد الى الجيزة ، وكانت تجلس أمامى امرأة لم تتوقف عن النظر إلىّ بعينين طويلتين عميقتين فيهما شبق وخجل ، وجهها أبيض مغسول مسحوب كوجوه الشهيدات فى الايقونات القبطية ، وكانت ركبتاها

عاريتين تحت فستان أبيض خفيف مبطن الكتفين ولكن ناعم الانسدال على ثدييها ، ودبوس طويل بفصّ يلمع مرشوقا فى الوهدة بين استدارتى النهدين ، فحاولت أن أخفى ماحدث لى ، ورفعت ساقا على ساق وأحسست بخجل من البنطلون غير المكوى ، وتحملت العرق وماأحسه من توهج الوجه بأن أنظر الى تيار المرور وأقرأ أسماء المحلات والفنادق قراءة آلية .

صرخات الطاووس ونداءات الببغاوات الثاقبة تمتزج فى الحر بزئير خشن وبعيد ينقطع فجأة ، فتعود زقزقة العصافير ، كأنها فقدت الوعى ، متصلة دون هوادة ، ومُرهِقة .

هى الآن تجىء من بين المقاعد الخوص المستديرة الظهر ، والموائد الحديدية المفروشة بملاءات ليست ناصعة البياض منقوشة بمربعات زرقاء ، فينظر اليها العساكر الانجليز بوجوههم الطويلة العظام ، والافريقيون بأنوفهم الغليظة وأسنانهم البيضاء السافرة فى ابتسامة مفتوحة على مبعدة قليلا من النيوزيلنديين بجثثهم الشاهقة . ويصفر أحدهم صفارة طويلة ويرفع شوب البيره ويفرغه مرة واحدة . ومعهم امرأة حرفتها واضحة . حواجبها محفوفة مقوسة وشفتاها اللحيمتان داميتان بصبغة فاتحة ووجهها الاسمر فلّاحى خدوده بارزة ولها جاذبية صريحة أرضية . شعرها الخشن ملفوف بمنديل ناعم معمول من حرير البراشوت القديم وقد تغضن الحرير فوق الشعر العصى . فستانها الخفيف ملون بأزهار كبيرة صفراء وخضراء ، وانعكاسات شمس بعد الظهر ، متقطرة من على سطح ماء البِرْكة الساطع اللمعان ، تتخلل النسيج الشفاف وتسقط بينه وبين جسمها الاسمر فى وضاءة لها سيولة ، كأن ظهرها وخصرها وجانب صدرها الكبير ، كلها ثابتة فى ماء مترقرق لا قوام له . صدرها يكاد يكون عاريا كله ، يهتز طريا ، وعريضا ، وخصيبا ، يثقل فتحة الفستان الواسعة ويهبط بها قليلا . جندى صغير القامة يضع ذراعه العارية المحمرة ، فى قميصه الكاكى بنصف كم ، على صدرها ، فتتخلص منه بحركة سريعة خبيرة . امرأة نضجت بل أوشك نضوجها على غايته ، تضحك وفمها مفتوح ضحكة هادئة ومكتومة على غير المتوقع ، وهى تخفض رأسها نحو

صدرها كأنها تنشج لولا أن قسمات وجهها كلها سعيدة بنوع غريب من الرضى والنسيان . وظلال ورق الشجر من على حافة البركة ترتعش وتتذبذب على ساقيها الداكنتين تحت سطح المائدة المعدنية ، بين القوائم المدببة السوداء الصدئة قليلا .

هى الآن تقترب منى ، لاتلتفت الى العساكر بل لم يسرع خطوها ولم يبطىء . ساقاها البيضاوان الرشيقتان العاريتان من تحت الجيب القصيرة ، منعشتان. تنزلق بكبرياء من بين المقاعد ، على وجهها الناعم بدايات ابتسامة صغيرة وجسمها ملفوف كأنها سمكة ، أملس ينساب فى موج البحر والناس ، بلا اهتمام ، وردفاها مسبوكان يهتزان بثقة كأنها سيدة مستوية الاركان . وأرى ، بوضوح ، فى نور الشمس القوى ، حزامها الذى يدور ببطنها الصبيانى المدوّر وبِنسة شعر تمسك بالمشبك الصغير المكسور .

وعندما أطلب الشاى الكومبليه ينظر الىّ الجرسون بما ظننته يشبه السخرية وعدم التصديق . أما هى فهادئة الوجه وعيناها لامعتان ، بلوزتها من قماش خفيف أبيض نظيف ومكوى يشف ، بدون ايضاح ، عن قميص داخلى أبيض أيضا يضم ، باحكام ، صدرها الشاب النحيل ، وأقول لنفسى ان الابيض هو المودة هذا الصيف .

يدها وهى تتناول فنجان الشاى صغيرة كعصفور ولها حياتها المتوفزة كأنها مستقلة عنها . حركتها عندما مست يدها يدى مفاجئة وحميمة تقف لها دقات قلبى ، وأحس أننى أحمل ثقلا .

قالت لى ان قريبا لها يشتغل فى مصلحة المحاجر والمناجم تقدم لخطبتها وانه يملك بيتا فى شبرا وأرضا فى الصعيد وانه عجوز تجاوز الخامسة والثلاثين وله كرش ولُغْد ونظارة مدورة وعيناه ضيقتان وفيهما نظرة احتياط وحسابات مستمرة وقالت لى انها على استعداد لأن تموت ولاتقبل هذا الزواج وانها ستنتظر الى الابد ولكن أمها تبكى ليل نهار خوفا على عَدَل بنتها وخشية من فقدان العريس اللُقْطة وان أباها لايكلمها .

وقلت لنفسى انها ستتزوج قريبا ، وتنسى هذا الحب الرومانتيكى وتخلّف الاولاد والبنات وتعكف على طبيخ بيتها وغسيل زوجها وأولادها .

وقلت لنفسى ان الحلم سينقضى واننا نعيش فى عصر لايرحم وان جولييت كانت وهماً من أوهام الاقطاعيين فى مدينة أوروبية فى آخر العصر الوسيط .

وقلت لها انه سيبحث عن عمل ويعطى دروسا فى اللغة الفرنسية وسيحصل على الليسانس بتفوق ، بعد ثلاث سنوات،وانه سيأخذها معه الى فرنسا ويدرس للدكتوراه .

فقالت لى انها ستنتظر وان ايمانى به يقوّى ايمانها وانها تثق فيه وفى المستقبل وفى العناية الالهية .

رائحة مياة البركة تحت الشجر الثقيل القديم تعود إلىّ برائحة التراب المبلول فى قرية أمى منذ سنين ، ووجه قريبتى جميانه . وكنت أتصور القديسة ، دائما بوجهها هى وبطرحتها السوداء الشفافة . وكانت أكبر منى بسنتين وكانت تلعب معنا الاستغماية وأمسكت بصدرها الصغير القوى ، وضغطت هى بظهرها علىّ بجلابيتها المنقوشة بزهور حمراء وكانت ساقاها وردفاها ناعمة ومتينة . وكانت لحظة كالحلم ولكنْ متجسدة ولايستطيع جسمى أن ينساها .

وكان قلبى مثقلا وسعيدا ومتعبا ومضطربا وكل شىء فى المستقبل وليس هناك الآن شىء .

الكوبرى الحديد الرقيق كأنه مشغول بالدانتيلا ويهتز تحت أقدامنا . وجرؤت فأمسكت بيدها ، فى حنان ومواساة ، ولم تسحبها على الفور. والهواء يرتعش وخضرة الصبار الشائكة المتوحشة صامتة ومتهددة . وأحس وهى تسير بجانبى ، وتصطدم يدى بيدها كأنما بعفوية وبدون قصد ، أنها تحرص مع ذلك على أن

تكون خطواتها على على غير حذو خطوتى ، كأنها ليست معى . أعرف ، عندما توقفنا لحظة ، أنها قد أجفلت كأنما المفاجأة أو ضربة خوف خفيفة ، قد أرجعتها الى الوراء .

كان الفهد الأسود المضفور الجسم يدور فى قفصه الضيق ، بحركة سريعة دائرية لاتتوقف ، كل خلجة فى هذا الجسد النحيل تنتفض بغضب لاينفثىء لحظة واحدة ، وعيناه الخضروان مشتعلتان فى الظل تحت حيطان بيت الأسد المبنية على الطراز الرومانى الرث بأعمدة من الحجر غير مصقولة الاستدارة عليها ملاط أصفر كالح ، وبينها فراغات موحشة .

وكانت الرائحة العطنة المنتنة بالأنفاس الحيوانية تفغمنى ، وكانت اللبؤة مستلقية على جنبها وقد مدت ساقيها مفتوحتين فى وضع نصف مقلوب والتهدلات الكبيرة تحت بطنها الضامر بذيئة فى ضخامتها وسقوط طياتها بعضها على بعض وغموض تركيبها الذى بدا كأنه معقد وغير مفهوم .

كان المبنى كله خاويا معتما وقد أسدلت حصيرة من القش المضفور القذر وراء القطة الضخمة الشبعانة . وليس ثم حارس ولامتفرجون ولا الأولاد يتنادون ويتصايحون حتى يداروا خوفهم من الحيوانات الجسيمة برؤوسها البشعة ، وأسنانها العاجية المكشوفة .

هذه الوحشة فى المبنى ، بجدرانه التى تقطعها نوافذ زجاجية مستطيلة مدهونة بالأزرق عليها قضبان حديدية رفيعة ، يخامرها غبش خفيف كأنها تحت ماء فادح الثقل .

الباب الذى تضربه الشمس بضوئها المُمَدَّد القوى يبدو بعيدا ، بعيدا جدا ، لايمكن الوصول اليه .

ولم أعد أعرف ما اذا كانت بجانبى ، أو قريبة منى ، فاننى لاأراها ، ونضارة جسمها لم تعد معى . ولكننى أعرف أنها موجودة مع ذلك ، وانها ترانى . والقلق الخافت الوقع فى قلبى يمسكنى أمام القطة المكومة الكبيرة ، المضطجعة وحدها . أنا وهى ، وحدنا ، بينى وبينها قضبان حديدية عالية ترتفع ثم تنحنى تحت السقف الشاهق ، فى أقواس هندسية مغلقة وثيقة لايمكن تخطيها .

ورأيت فى جانب القفص شيئا أبيض حيا دقيق الجسم ، وادعاً الى موقعه، يبدو واثقا هادىء الروع ، يتحرك بأقدامه الرقيقة على أرض القفص نحو اللبؤة الهائلة . وكان جلده مغطى بفرو أبيض نقى البياض ، وفمه مسحوبا مغلقا يتشمم الهواء بألفة وتطلع طفلى . وخطر لى أنه فأر ولكن فيه ملامح الارنب أيضا وله ذيل كثيف طويل ملتو كأنه ، أيضا ، من تلك الحيوانات الزهيدة البدن التى تتناثر فى أقفاصها الاخرى البعيدة . هل هو سنجاب أو ثعلب صغير ؟ ولكنه ليس غريبا ولايثير الدهشة بل أراه لطيفا وطبيعيا فى خلقته وسلوكه على السواء ودمثاً بل محبوبا ، كأننى أرى كتكوتا أبيض ينقر الارض على سطح بيتنا فى غيط العنب جنب كومة البرسيم ، ويزقزق دون قلق .

نظرت اليه اللبؤة بكسل وملل ثم تثاءبت ، وانفتح فمها الواسع المظلم بأنيابه الحادة دون صوت الّا فحّة انسحاب الهواء فى نفس مشفوط عميق ، وأغمضت عينيها .

وتقدم الشيء الحيوانى الابيض المرهف الجسم بخطوات سريعة ولكن مطمئنة بل كأن فيها شيئا من الخفة والنزق ، حتى وصل الى القدم الضخمة بأصابعها المفلطحة ومخالبها الكامنة ، ومد فمه يتشمم بفضول .

ودون أن تتحرك عضلة واحدة فى الجسم المُمَدَّد البذىء انطلقت المخالب المقوسة فجأة ، سكاكين مشحوذة السن ، وبضربة واحدة خفيفة ، كأنها بلا مبالاة ، طعنت العنق الابيض المشدود .

سقط الحيوان الدقيق على جنبه ، هامدا ، وتفصدت نقطة دم واحدة على الفرو الابيض ، مدورة ، حمراء داكنة ، ليس هناك غيرها .

كان فى الجسم الناصع الوديع نقطة دم واحدة ، لم يكن هناك فى داخله الا نقطة دم واحدة ، كان قلبه يضخ نقطة دم واحدة ، هى كل حياته ، تقطرت من عنقه الآن ، لم يتشربها فروه الناعم ، لم يعد فى شرايينه وعضلاته شيء على الاطلاق ، هذا كنت أعرفه .

سقط هادئا مفتوح العينين .

الاشجار العالية تبدو ذؤاباتها الملتفة ،من وراء سور الحديقة ، وعليها أسراب كثيفة من طيور الايبيس البيضاء الكبيرة الاجنحة ، وقد أوت الى مغاور الخضرة القاتمة قبل آخر النهار ، ورائحتها نفاذة .

صفارات حرس الحديقة طويلة وبعيدة ، ونداءات الامهات . ولأقدام الناس حفيف منتظم على حصى الطرقات .

صرخات الحيوانات المحبوسة تنطلق فجأة من بين الاشجار ثم تنقطع ، تنبيء بيقظة الليل وشهوة الافتراس القديمة ، فتسكت شقشقة العصافير فجأة ، لحظة واحدة ، ويسقط صمت موحش ليس فيه الا خشخشة أوراق الشجر مع هبات أولى أنفاس المساء .

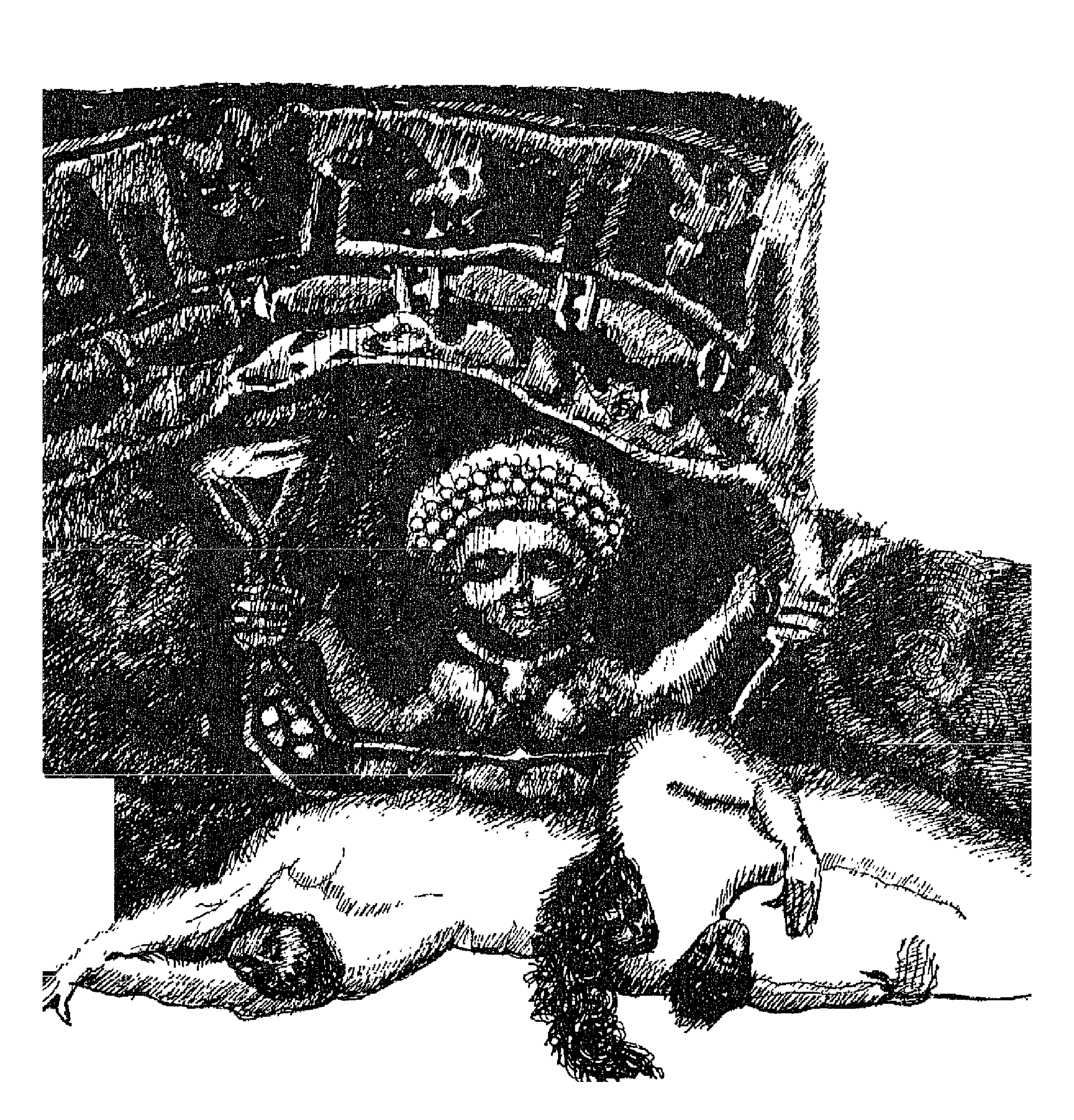
آخر اشعة الشمس تشعل الشجر فجأة بنار متموجة ناعمة من الزهر البنفسجى ، جذوع الشجر لينة العضلات ، عارية ، مثيرة .

وتجاوزنا الباب الكبير وأخذنا طريقا متربا جنب السور . والى جانبنا أحواش الكباش الجبلية والايائل ، خالية ، ترابية ليس فيها زرع ، مظلمة الفوهات .

وتحت القوس الدائرى الحجر فى باب الخروج الجانبى ، بين الاشجار الكثيفة ، كانت العتمة رطبة شيئا ما ، بعد صهد النهار . وكنت أعرف أن علىّ أن آخذ آخر قطار بعد ساعة وأن كل شىء مازال بلا حل .

كان هذا الجانب من الحديقة مهملا ومهجورا وليس فيه ناس ، ولم أر حارس الباب وكانت وحشة الغروب والحزن الخفيف تثقل قلبى . وكنت أعرف أننى لست فى الحديقة وأننى لست فى ذلك الزمن ، وأن جميانه ليس لها وجه هذه الفتاة ، وكان وجهها مثل وجه قديسة ، ورأيت لاول مرة ، دون دهشة ، جرحا دقيقا يلف رقبتها كأنه حز أحمر رفيع جدا ، كأنه أثر ذبح بسكين ذات حد مرهف الرقة . ولم أحتمل . فانحنيت عليها وقبلتها فى فمها . وانفجر الدم من شفتيها .

قبل السقوط



خرجت من الحارة المزدحمة التى كنا نسكن فيها منذ سنين ، وحيطانها المتقابلة تغطيها دائما مساحة داكنة الرطوبة صاعدة من الارض ، متموجة الخطوط . والرائحة الثقيلة التى لاتنجاب عنها أبدا وتسطع فى آخر النهار ، محسوسة . رائحة مياه الغسيل والمسح وبقايا الطبيخ وريش الفراخ وقشر السمك التى تصب ويطوح بها من النوافذ والبيبان والسطوح فى أى وقت من الليل والنهار على تراب الحارة ، فلا يجف الوحل أبدا حتى على الرصيف ، ورائحة مايتركه الاطفال تحت الحيطان عندما يرفعون الجلابية ويقعدون فرادى أو جماعات ، ويغيبون لحظة عن العالم فى نشوة مستغرقة خاصة ، ثم يثبون ، وينطلقون جريا الى صراخهم ولعبهم الذى لاينقطع حتى تلحق بهم أخواتهم البنات الاكبر قليلا يضربنهم على الرأس والكتف لكى يعودوا للبيت .

كنت قد صحوت من نومة بعد الظهر المتأخر ، وكنت بالبيجاما القطن وفيها خط مستطيل لامع ، وصعدت السلالم القديمة بسياجها الخشبى الذى يلمع سواده من القدم ومس الايادى . وكان معى « جمهورية افلاطون » وأنا أطل من سور السطح على الحارة التى تتقلب فى ضجيجها وروائحها ونداءاتها .

الست سنيه زوجة المعلم أبو دراع العربجى ، فى البيت المواجه القريب أمامى ، من تحت . تطل من النافذة القديمة المفتوحة ، بصدرها الثقيل ، مكشوفا فى قميص النوم الساتان الفضى الناصل النسيج المشغول بدانتيللا سوداء . كان صدرها مضغوطا على قاعدة النافذة بلحمه الاسمر الزيتى ، أراه من فوق . وجهها يبدو منتفخا ، وعيناها ثقيلتان قليلا من نوم بعد الظهر ، فأضم بين ساقىّ صلابة استدارة غير مقلقة وغير ملحّة .

كان آخر نقيق الفراخ فى العشة قد خَفَت وأخذ يتقطع ثم سكت . ومازال على السطح نور السماء الحارة وهواء المساء المبلول ، والتفتّ الى الباب الخشبى وهو ينفتح ، ومُنى تدخل الى السطح تحمل بمشقة طشت الغسيل المثقل بملاءات السرير والجلاليب والفساتين وقمصان النوم الملونة والملابس الداخلية الرجالى البيضاء ، مبلولة ومعصورة وملفوفة على بعضها البعض وفيها ثقل الماء ورائحة الغسيل والصابون النظيفة الحادة .

أسرعت اليها بلهفة ، ووجهى ملىء بالدماء ، والبيجاما الخفيفة تفضحنى على الرغم منى . وقالت بابتسامة خافتة وعينين فيهما خجل ، ومعرفة : « سعيدة » وكان صوتها صغيرا كأنه صوت قطة . وقلت لها : « عنك » . حملنا الطشت الثقيل معا ، وسرنا بضع خطوات حريصة متعثرة ، جنبا الى جنب . واصطدمت ساقى بفخذيها الرقيقتين من وراء الفستان وأحسست البلولة فيه من ماء الغسيل ، وكانت ركبتاها خشنتين ولونهما أكثر سمرة من ساقيها المجدولتين ومن قدميها الحافيتين القويتين . ووضعنا الطشت على الارض ، ببطء ، ونحن نبتسم . وعندما انحنت مال صدرها المخروطى المتماسك الى الامام ، تحت القماش الرطب . وكان وجهها بجانب وجهى وهى تقوم ناعما جدا ومسحوبا وسمرته مضرجة بلون داكن عند أعلى عظمتى الخدين البارزين ، وشفتاها واسعتين ونضرتين .

وعندما كانت ذراعاها النحيلتان مرفوعتين ، وهى تنشر الغسيل على الحبل الممدود بين عشة الفراخ وسور السطح ، كان نهداها الصغيران راسخين ، يرتفعان الى أعلى فى حركة ثابتة ، وكان بطنها هضيماً ومستوى السطح ، كأنها ولد .

وحكيت لها عن جمهورية أفلاطون وقلت لها إن الذى يحكم فيها هم العقلاء والحكماء وليسوا العساكر ، وليس فيها انجليز ، وليس فيها حرب ، وان الناس يجب أن يتعلموا الموسيقى ويعزفوها ، منذ صغرهم . ولم أشرح لها معنى الموسيقى . فضحكت وقالت لى انها تحب أن تتعلم ضرب العود معى ، وأن تغنى وأنا ألعب على العود . وقالت لى انها تحب أسمهان جدا وتموت فى أغانيها ، وتحب رجاء عبده أيضا . وكان شعرها قليلا ومعقوصا وملموما فى ضفيرة واحدة ومؤخرة عنقها دقيقة وبيضاء قليلا وفيها شعيرات سوداء .

كانت تنشر الملابس والملاءات الثقيلة المتقطرة بالماء بيدين رقيقتين ، محمرتين قليلا فى نور المساء ، وكانت ملابسها الداخلية الملونة الخفيفة القماش بمقاسها الاصغر والفتحات الصغيرة غير المرتوقة فيها ، مختلفة عن ملابس أختها الكبيرة ، ومعروفة على الفور وتوجِد بينى وبينها نوعا من المعرفة الحميمة والسر الساذج ، دون خجل .

وقالت لى انها بعد أن تخلص من نشر الغسيل ستغير فستانها وتشترى حاجات للعشاء من عم محمد البقال فى شارع راغب باشا .

ونزلت بعد أن قالت مرة أخرى بصوت خافت فيه انتظار : سعيده .
ولما رأيتها تخرج من الحارة ، وكنت أمشى ، منذ فترة ، على أول الشارع ، هبط قلبى واستدرت من الناحية الأخرى . كانت مع ابن خالها الطويل الغليظ الشفتين الذى كان يزورهم كل ليلة تقريبا ويتعشى مع أخيها .

كنت قد قلت لها : ابن خالك هذا ، على فكرة ، أين يسكن ؟

قالت : فى البياصة ، بعد شارع ١٢ . فى بيت مِلْك ، عقبى لك .
قلت : مسافة بعيدة .
قالت : أخى يعمل معه . عند ميكانيكى سيارات فى البِيَاصة ، كانت بينه وبين أبى معرفة قديمة .

قلت :والغريبة انه يلعب البلى مع أولاد الحارة الصغار .
قالت :هو هكذا . يحب لعب البلى ، مع انه كبير . وضحكتْ .

وتيقظت غيرتى مرة أخرى ، من هذه الضحكة . وكان ابن خالها له عينان مدورتان جاحظتان من محجريهما ، ووجه كالعجين المتخمر ، أبيض وبه حفر صغيرة من أثر جدرى قديم ، وشفتاه مملوءتان .

وكانت أختها الكبيرة تزور أمى ، وكانت دسمة الجسم وطويلة وصدرها يكاد يكون مربعا ووثيقا فى البلوزات الشفافة الضيقة التى كانت تحب أن تلبسها فتكشف تحت كتفيها القويين عن قميصها الداخلى الاسود اللامع دائما . وكانت تسلّم علىّ بيدٍ طرية لاعصب فيها ، مرمية كأنها لاعظام فيها . وكانت تعمل فى فابريكة الغزل والنسيج فى كرموز وتدخل الحارة فى أول المساء بعد الشغل ، وشعرها مفكوك متناثر . وكنت وأنا فى غرفتى الداخلية التى تطل على المنور ، أذاكر الجغرافيا وأحل مسائل الجبر وأنقل قصائد جبران خليل جبران فى أوراق صغيرة مُقْتَطعة من فواتير أبى القديمة ، أسمع الجارات ، أحيانا ، يحكين لأمى انها ماشية مع المهندسين فى الفابريكة . وكن يسكتن عن الكلام عندما أمر بالفسحة فى طريقى الى دورة المياه .

وكان أولاد الحارة الكبار ، صبيان البقالين والحلاقين والسباكين، يقفون مع تلاميذ المدارس الابتدائية الخائبين وعمال الميكانيكية الذين تسيل فى أيديهم النقود بلا حساب والذين لا أعرف ماذا يعملون ولا أعرف مَنْ هم ، يتجمعون على أول الشارع أمام خرابة يحيط بها سور من خشب قديم ووراءه أكوام الزبالة الجافة .

وعندما كانت تمر من أمامهم بجسمها الملىء الذى أحس ، دائما ، أنه متحرر وغير مكبوت وشبعان بالمتعة والعمل والخبرة ، كانوا يسكتون فجأة وتتجه عيونهم اليها بحركة واحدة تلقائية ، وكنت أعرف مايفكرون فيه ، ولم يكن لى بينهم أصدقاء ، وكانوا لايهتمون بى .

الحديقة الواسعة المزدحمة خالية كلها ، ليس هناك فيها أحد غيرى. والليل هادىء ومشحون . وأكاد أتعثر وأنا أهبط بسرعة على الأرض القاتمة الخضرة ، بين حشد أشجار قصيرة ومظلمة أغصانها متقبضة على بعضها البعض ، كأنها تتآمر . كانت كل شجرة حولى يقظة وصامتة ، أعرف أن فيها خطرا ، فلا أجرؤ أن أمد يدى لأمسك بها .

وكنت أعرف أننى فى الشلالات ، لكننى لم أكن أعرف مع ذلك هل ركبت ترام الجمرك أم الرمل ، وهل هذه الارض المشجرة المرتفعة التى أتدحرج عليها ، وأكاد أسقط ، فى رأس التين أم فى الشاطبى . وأشجار النخل الملوكى الشاهقة بسيقانها البيضاء المضفورة وتيجانها الدائرية المفروشة تهتز فى السماء الخفيفة . وأرى خلفها وقريبة جدا منها أسوارا من الحجر الاحمر المتين وبوابات عالية مقوسة العقود ، وأبراجا غامضة الاركان فيها نوافذ مستطيلة متقابلة مفتوحة أمام بعضها البعض ، وتبدو خلالها زرقة ليس فيها نجوم ، وأسأل نفسى هل هذه سراى رأس التين أم ملعب الملك . وأشم رائحة البحر القريب ، عطنة وأنفاسها حارة ومائية .

وأهبط ، أخيرا ، باندفاع ، الى وهدة الارض المغطاة بخضرة أكثر وضوحا وشحوباً ، مقصوصة وخشنة المظهر . وأحس تحت قدمى قوة التربة المتموجة ببطء وثقة . عتمة آخر المساء تحت صف الاشجار المتقاربة ، وللهواء فى أوراقها الكثيرة حفيف أجش . وأكاد انزلق الى ترعة ضيقة جدا وفى قاعها ماء قاتم يجرى بصمت وسرعة وينعكس على سطحه اللامع السواد نور لايكاد يستضىء ، كأنه عتمة أخف قليلا مما حولها ، بين قمم الاشجار ، من سحابات بيض ، ثغرات مفتوحة فى سماء الليل .

أثب ، خطوة واحدة ، ولكنها لاتنتهى ، على الممر المائى الرفيع ، وكأنى لاأهبط أبدا على الشط المقابل ، وأستمر مرتفعا فى الهواء ، فى وثبة صغيرة جدا ولكن لايفرغ زمنها أبدا ، لا أصل أبدا الى سفح الاشجار المصفوفة التى تقف

تنتظرنى ، تترصدنى.أحلّق ، وأعرف أنه يجب أن أصل ، بأسرع ماأستطيع ، الى شيء ما ، ضرورى .

الشارع المسفلت العريض الذى تقف عليه أسوار المدافن ، صامت وفسيح . أنظر اليه من تحت وأنا أجرى فى نعومة ، كأننى أشق بلاجهد موجا مفتوحا أمامى ، وجيش العابرين حولى ، لاصوت له ، وغير مرئى ، ووثيق الصفوف ، وسوف تنطبق عليه الامواج . وكنت هادىء الانفاس لا أحس ضربات قلبى . وقلت لنفسى اننى الآن لا أعرف أين قبر أبى ، وأننى لم أزره مرة واحدة منذ أن دفن فى حفرة عميقة طويلة ، وكنت أريد أن أدفن نفسى معه ولاأتركه ، ولما خرجت الى هذا الشارع كان نور الظهر الساطع وهواء البحر يجفف دموعى .

الملائكة الرخامية من وراء أسوار الجبّانات تحلق معى فى الأفلاك العلوية، صلبة وبيضاء ، بأجنحتها المبسوطة الثابتة ووجوهها الجميلة كأنها تبتسم لى أنا وحدى .

وتحت رفيف الملائكة أرى العسكرى بحلته السوداء التى تلمع فيها أزرار نحاسية يومض بعضها وينطفىء بعضها ، يسير بثبات ، وبندقيته العتيقة الطراز على كتفه كأنه جامد فى مكانه ، لايتحرك ، ولكنه يسير بخطواته البطيئة لاوقع لها على الاسفلت ، ونحن جميعا معا ، الملائكة وأنا والعسكرى ، بلا غرابة ولاسؤال ، كأننا فى بطن مركب مغلقة تخوض بهدوء عباب بحر واحد مياهه ساجية ، ولكننا لا نرى أثرا للبر . وكأن حياتى نفسها تتوقف على الوصول الى شط البحر .

أريد أن أسأل العسكرى لماذا المصابيح مطفأة ؟ هل نحن فى غارة ؟ فأنا لم أسمع صفارة الانذار . ولكننى أعرف ان العسكرى لن يجيب ، وانه لن يسمعنى ، وانه ايضا لايعرف ، بالتأكيد .

أريد أن أكسر هذ الطوق . دون سؤال . هذا محتوم .

وعندما أنحرف فى الطريق الواسع الخالى الى اليسار فليس ذلك ، على نحو ما ، بإرادتى . الشارع مظلم ، ومرتفعات الشلالات الى جانب ، بأشجارها العجوز القوية فى الليل ، والى جانب آخر ، جدران مخازن فورد العالية أحجارها رمادية وضخمة تقطعها النوافذ الكبيرة المغلقة بزجاج شديد القتامة تلمع عليه من الخارج قضبان حديدية سوداء ، وليس فيها نور . ولاتنتهى . الابواب الحديدية الهائلة عليها أضلاع المتاريس المتقاطعة ، وتحت الجدران صف واحد متلاحق من سيارات الاوتوبيس الزرقاء منتفخة البطن ، سطوحها مقوسة وداكنة فى العتمة التى تتكاثف وكأننى أحس لها قواما وجسما .

رائحة المطاط القديم فى عجلات الاوتوبيسات المرصوصة تختلط بنفث التراب السخن من الشلالات والخضرة الجافة وعبق الزهور اليابسة الحمراء التى تفتتت وغطت بقعا واسعة تحت الاشجار المحترقة من الشمس طول النهار . وأنفاس البحر الليليّة تأتى إلىّ من فوق المدافن الشاسعة المزدحمة بالموتى ، وأعرف أنه ليس لى موتى فيها بعد ، وأعرف فى الوقت نفسه أن أبى ، وأخى الصغير الذى مات بالتيفود وأختى التى ماتت محترقة ، قد دفنوا فيها ، فى مستقبل لم أضعه موضع سؤال .

كنت قد رأيت مُنى تخرج من الحارة وتستدير حول البيت المهدوم ، واضطرب قلبى واستدرت بحركة لاأكاد أحسها نحوها ، وتوقفت حركتى فجأة وكأنما غاضت الدماء من جسمى كله . كانت تسير بسرعة وقريبة جدا من ابن خالها ، وساقاها العاريتان تلوحان ناعمتين ورقيقتين تحت فستانها الخفيف الذى يسقط الى مافوق الركبة بقليل ، واسعا يهتز بايقاع رشيق ومتوفز . ورأيت فى عينيها نظرة لايمكن أن يشتبه معناها . نظرة البنت العاشقة التى تتعلق بحبيبها ، فيها هذا الفضول الآسر والجاذبية الأوليّة التى لامفر منها . جاذبية الارض ، جاذبية النجوم فى مسارها المضروب . نظرة ثابتة ، ولاتتحرك ، لاتستطيع أن تتحول ، وفيها نسيان تام للعالم كله من حولها ، ومعرفة بأن العالم هناك ، صحيح ، ولكن ليس له أدنى أهمية . واقتربت بوجهها منه ، وهمست له فى أذنه بشىء . هل كانت

ترمقنى عندئذ بطرف عينها فى حركتها المندفعة بعيدا عنى ؟ سمعتها تضحك بلا مبالاةٍ كأنها قسوة . وكان الولد يضحك أيضا دون أن ينظر ناحيتى . وعرفت أخيرا ، معرفة قاطعة للقلب ، أننى ، فى النهاية ، جزء من هذا العالم الذى ليس له أدنى أهمية .

وعرفت ، وأنا مخدر القلب بعد ضربة الجرح ، أن فى هذه القسوة مع ذلك علاقةً مابينى وبينها ، بينى وبينهما ، علاقة حميمة ، وحسية أيضا ، وقلت لنفسى اننى لن أقبل هذا الارتباط أبدا ، ولن أخرج اليها أبدا ، ولن أنتظر ، حتى ، أن تأتى إلىّ عن طريق الصدفة أو عن طريق التدبير . وقلت لنفسى ان القسوة قائمة ، هناك،وان رفضى لن يمسها ولن ينفيها . وقلت لنفسى ان العام قسوة واحدة متصلة .

أسير ببطء ، ثقيل الصدر ، ولاأعرف متى غادرتنى الملائكة الحجرية ، وفوق سقف منخفض ، وكأننى فى سوق مهجور ، أمر أمام أبواب خشبية قديمة مغلقة على الناس النائمين . والعساكر تقف على الابواب ، ملابسهم سوداء مهدلة ، وعلى أكتافهم البنادق طويلة الفوهات . لاأرى وجوههم تحت الطرابيش المكسوة بقماش أسود أيضا له حافة طرية دائرية على الوجه وعلى مؤخرة الرأس . كل باب منها عليه عسكرى ، يقف بجمود ، لايهتم بى .

ويهجس بقلبى رعب مكتوم وغضب مكتوم ، وأعرف بيقين واحساس بالجريمة ، أنه محرم علىّ أن أمر بهذه الطرقات الداخلية . وأننى أقترف اثما كأنه الاثم بالمحارم .

وأعرف أن النائمين يحسون بى . مصابيح الغاز القديمة بفوانيسها المربعة تشتعل تحت السقف بشعلات مهتزة . وأنا أعبر هذه الممرات الداخلية بين البيوت القديمة الحجرية كأنها من بيوت المماليك الاثرية التى يلجأ اليها الناس للسكنى والحياة ، بعض أحجارها قد سقطت وتركت فجوات مشعثة مظلمة

وغاصة بالحياة ، تعشش فيها طيور أو لعلها خفافيش ، وتتدلى منها أعواد قش جافة لايتطاير بها الهواء . والممرات مبلطة وعليها تراب ويهب فيها هواء بارد ، وحواف البلاط متعرجة جمدت بينها خطوط الطين الرفيعة ، صلبة وجزءا من جسم البلاط .

وأنا أريد أن أنادى ، أريد أن أوقظ الناس ، أعرف أن هناك مايهددهم ويهددنى ولاأعرف كيف أقوله . أريد أن أصرخ ، أريد أن أجأر ، أريد أن تهتز الجدران والأبواب المتهاوية تحت صيحتى التى تختنق وتخنقنى .

أعرف أن الناس من وراء هذه الحيطان القديمة كأنهم موتى . ولكنهم ليسوا موتى . وأن الامهات نائمات على المراتب القديمة الجافة القطن ملقاة من غير ملاءات على حصير الارض ، وأنهن يغطين أولادهن بملابسهن القديمة وبأذرع أنهكها الحنان والقلب المكسور . وأعرف أن الرجال قد ناموا كالموتى ، عيونهم مفتوحة ، يطبق على صدورهم دخان المعسل والكد والافيون الردىء .

وأحس قلبى مقطوعا شقين ، وجافا لن يرتوى أبدا .

وكانت قد قالت لى : لكنك لاتعرف كيف تغنى ، هل تعرف ان تقول أغانى فريد الاطرش ؟ .

واقتربت بوجهها منى . وكان فمها كبيرا وحمرة شفتيها طبيعية طازجة ، وأردت أن أقبلها فى فمها ، وقالت لى : ولكن ماذا تعرف ، أنت ؟ أنت لاتعرف شيئا أبدا ولا أراك أبدا مع أولاد الحارة . ماذا تفعل طوال النهار ؟ .

كنت أعبر شارع ١٢ . وكانت قضبان الترام لامعة تشق بلاط الشارع الخالى ، والدكاكين كلها مغلقة ، والمصابيح الكهربائية متقدة من وراء زجاجها المطلى بالأزرق ضوؤها غريب ومحزن ولايستفيد منه أحد .

وعندما نظرت الى أعلى ، فجأة دون سبب ، رأيت الشرفة ذات القاعدة الرخامية الضيقة بسياجها الخشبى الذى يلوح أن طلاءه القديم قد تعرى عن الالياف اليابسة . كان القمر الاحمر الباهت المدور ضخما وجسيما ومعلقا على سطوح البيوت المقابلة كأنه ملصق بالسماء اليابسة ، ضوءه القليل لايكاد يستبين .

وكانت الشرفة فى الشارع الهادىء بالليل تهتز ، ثقيلة تحت حشد من الناس الذين يلوّحون بأيديهم ويشوّرون ، ويفتحون أفواههم ويهزون رؤوسهم ، دون أن أسمع لهم صوتا . ومالت الشرفة الى تحت ، ببطء ، وكأننى أسمع صوت تقلقل الخشب يُنتزع من ملاط الحائط ، ولكنى لاأسمعه . وسقطت الشرفة الى الارض ، وسقط الناس . ولم أسمع اصطدامها بالشارع ولم أسمع صراخهم ، ولم أسمع الأجسام ترتطم بالرصيف كأن هذا كله لم يحدث . وهو قد حدث .

اندفعت الى الباب الخارجى المفتوح ، بحديده المشغول على شكل أزهار وأوراق وأغصان متعرجة ، وكان كل شيء داخل البيت هادئا . وصعدت السلالم الجديدة المصنوعة من الاسمنت المحبب . وكنت أغالب خوفا من حضور قوى مهدِّد يكمن فى ظلمة بير السلم .

ووثبت الدرجات اثنتين اثنتين وخبطت بلهفة على باب الشقة . وسمعت صوت الخبط على الباب يدوى مرتفعا له أصداء تتضخم وتوقظ سكان الشارع كلهم . وفتحت لى فلاحة شابة تغطى جانب وجهها النائم بطرحتها السوداء .

لم أستغرب أننا كنا فى أول الصبح ، والشقة كلها فيها نور شاحب وفيه وخامة يدخل من وراء ستائر بيضاء كثيفة ثابتة الطوايا تنتهى بشراشيب داكنة الحمرة . وفى الفسحة مائدة مدورة كبيرة خشبها ضخم ومصقول ومطعم بعروق ذهبية ، وفوتيهات محشوة ومنجدة بالقطيفة ولونها كالنبيذ الثقيل ملتفة حول استوديو مريح كأنه السرير مكسو بنفس القماش النبيذى المنتفخ بقطنه الوفير ،

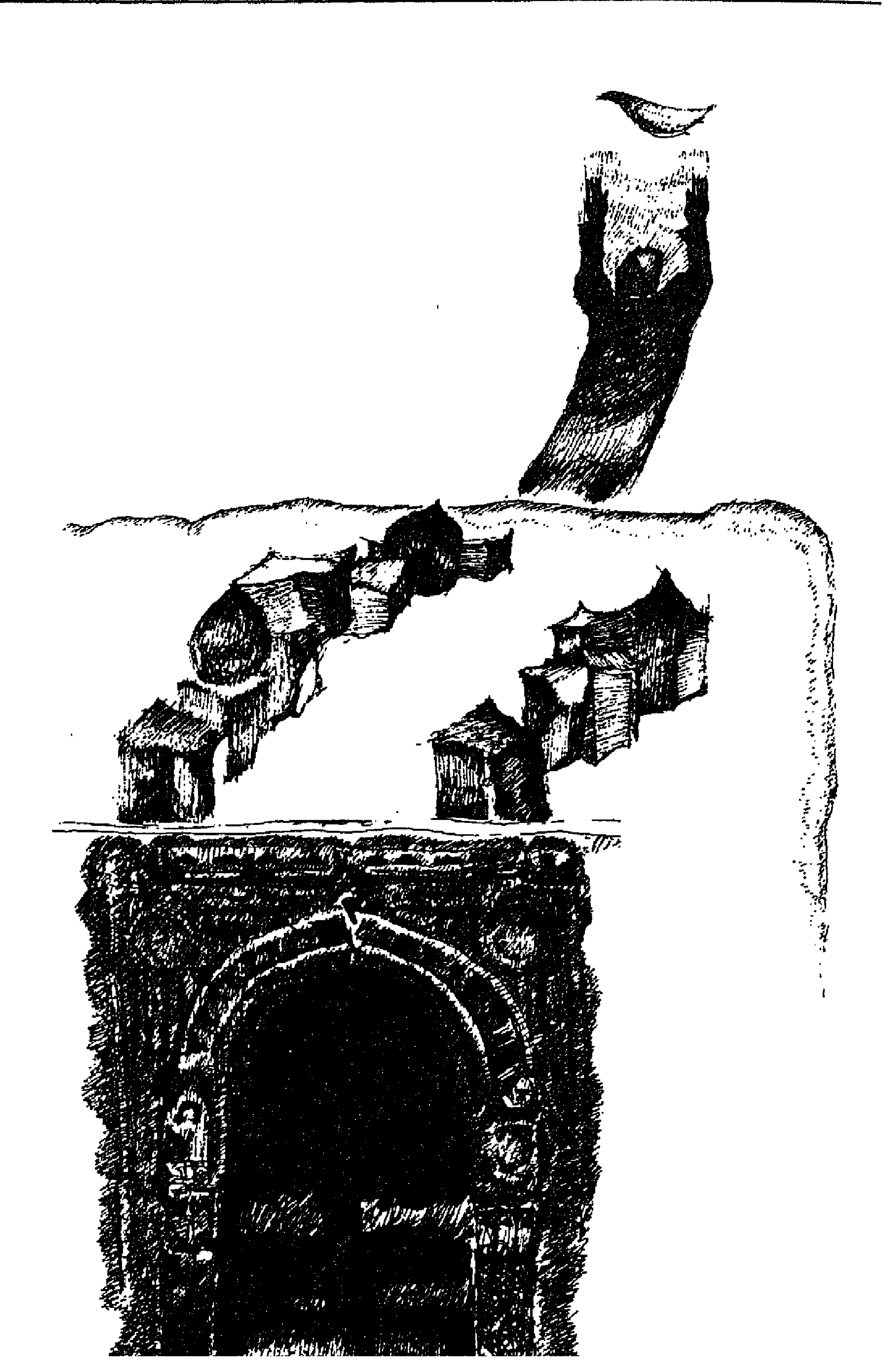
والسجادة على البلاط الذى يبدو منه تحتها ، كثيفة ، وقدمى عليها لاصوت لها .

وكانت نائمة أو ممددة ، على السرير ، لاأعرف ، تحت أغطية كثيرة وناعمة وغنية النسيج . وكنت أعرف أنه لاسيقان لها ، ولاوجه لها ، وأنها أنثوية ، ودمثة الجسد ، ولاأستغربها ، ولا أنفر منها ، ولا أرفضها . بل أحس أنها تجتذبنى اليها ، كأنها تدعونى . وكانت حية ولكن باردة الدماء ، وقد استكنّت فى الفراش ، وكانت تنتظرنى .

وعندما اقتربت منها وانحنيت عليها كان قلبى واجفا ولكن يدىّ ثابتتان . ربتّ على كتفها الغض وكأنه مكسو بفرو أبيض حىّ ، تغوص فيه أصابعى . وكانت داجنة وراضية وعيناها مدورتان فاهمتان . ومن خلال الفرو كنت أحس تحت يدى بكتف امرأة ، ناعم الدوران . وكانت تخرج أصواتا أليفة ، شبعانة ، دون كلمات . وكأننى أقبل هذه الأصوات وأنا أسمعها تتردد فى فسحة البيت الذى ماكاد يصحو من النوم ، أصواتا تكاد تكون إنسانية ، نسائية ، ولكن فيها هرير مكتوم خافت ، ومواء صغير ، ونقنقة هادئة تأتى من مياه ضحلة ساكنة . ولكن صوتها كان فيه أيضا بحة ، كأنها توشك أن تتكلم ، لأول مرة فى حياتها ، من غير جهد ولامعاناة ، ودون كلمات .

وصرخْتُ ، صرخة واحدة .

أقدام العصافير
على الـــرمل



كان العالم فى فجره الأول ، خاويا ليس فيه أحد ، والهواء النقى ، صحراويا وصحوا ، فيه بلولة البحر وجفاف خاص فى الوقت نفسه .

كان الوقت ظهرا وهادئا ، كامل السكون .

الصمت ليس صلبا ، صمت ناعم . كل شيء كان ناعما ، صلبا .

كنت قد عدت الى هذا العالم الذى لاينقضى أبدا . وأنا مع ذلك غريب فيه أعرف أننى لست هناك .

وأمى تمسك بيدى ونحن ننزل من القطار الى المحطة فى أبو قير ، وحدنا . لم يكن فى القطار ، ولا فى المحطة ، غيرنا .

أرصفة المحطة مرتفعة ، قائمة مباشرة على الرمل الأصفر النظيف ، وأرضيتها سوداء لامعة البلاط .

مبنى المحطة ، بمدخله الرطب الظليل المفتوح على الرمال من الجانب الآخر ، وسقفه المثلث المكسو بطوب القرميد الاحمر ، وشباك التذاكر الوحيد المكتوب عليه بالعربية والانجليزية ، ومن وراء قضبانه الحديدية وجه ناظر المحطة ، جامد فى العتمة ، يبدو كأنه مبنى مسحور .

الخرطوم الاسود الضخم ، معلقا بفوهته الحديدية المضلعة من الصهريج ، متين العضل ، جِلده الخارجى مندى وحار ، يتدفق منه سيل متماسك القوام من الماء، يضرب الرصيف ثم يسقط مندفعا كأنه شيء صلب ، ويتقلب ويهضب ويُزبد برغوة شفافة وثقيلة وبيضاء ، يهبط الى الفراغ المستطيل بين الرصيفين العاليين ، ويسيل على الفلنكات الخشب وبين القضبان الحديدية الممتدة ، بثقة ، الى المصدات الحديدية الشريرة الشكل .

نزل السائق من القاطرة القوية المدورة البطن ، كاملة السواد ، وعليها كتابة ذهبية اللون ، ومازالت تنفث هبات كثيفة من البخار الأبيض فى نور الظهر . انحنى بكل جسمه . وأدار ، بجهد ، عجلة ضخمة أفقية على الصنبور الكبير المنتصب على الرصيف ، فانقطع انصباب الماء وتحول الى سلسال رفيع يتقطع ويتصل ، ويتقطر من على جانبى الرصيف الى الرمال الخشنة التى تتشربه ، بسرعه وعطش ، تحت الحصى والزلط وتراب الفحم .

كان الرجل صامتا وهو يعمل ، وكان الماء صامتا ، والمحطة صامتة . لاصوت هناك ولا أحد .

ورأيت بجانب المحطة عربة كارّو واحدة . الحصان المطهّم بالرقبيّة النحاس العريضة التى تومض فى النور ، وحده ، متروك ، يدفع خطمه ، بعمق ، فى شوال التبن وتصلصل فجأة الجلاجل النحاسية الصغيرة المعلقة حول عنقه ، وتهتز أصداؤها فى السكون الفسيح رفيعة الجَرْس حادة الوقع ، متلاحقة ، صغيرة .

فانطلقت أجرى ، أفلت من يدى أمى ، وأنا أنتزع قدمى بصعوبة من الرمل الطرى يغوص فيه حذائى القماش الذى كنت قد بيّضته ، فى الصبح المبكر جدا ، بحجر أبيض وقطعة فانلة أبللها بالماء من صحن فنجان القهوة .

قالت أمى : باسم الصليب وشارة الصليب . ولكنها لم تنادنى اليها . تركتنى أجرى . ودخلت ، وحدى ، فى الممرات الصحراوية الواسعة بين العشش والكباين والبيوت الحجرية القليلة المبنية من دور واحد ، من وراء أسوارها المعمولة من البوص والمربوطة بألياف باهتة غليظة ، مغروسة فى الرمل . وكنت أمسها بيدى وأنا أجرى فى الرمل بصعوبة ، فيتمايل السياج ، خفيفا ، وكانت فيه فتحات طويلة رفيعة بين قوائم البوص المحترق من الشمس . وكانت الشوارع ترتفع لى وتنخفض ، كلها رملية ، نظيفة . والهواء يرتفع بهبوات صغيرة من الرمل الدقيق ، لها حفيف فى أعواد البوص الهش .

وكانت النقوش المخرومة بأشكال هندسية وزخرفية ، فى خشب الكباين المغلقة ، والشرفات المائلة الخالية التى تقشّر طلاؤها ، تواجه نور الظهر بعتمة حميمة خاصة من الداخل .

وبين الكباين فجوات عرضية غير منتظمة ، ضيقة وصغيرة وظليلة دائما ، وعلى الرمل أوراق صحف رقيقة يابسة غطتها الرمال . وتغوص فى الرمل أغطية زجاجات الكازوزة وعلب الصفيح الصدئة ونفايات جافة حادة ، وترتفع منه ، بين حيطان الكباين ، أشجار نخيل مائلة وخشبها صلب ومضلّع والهواء دائما له وشيش فى رؤسها المترنحة بالخوص الرشيق المهتز .

ومن وراء العشش سمعت النداء المنغم الثقيل ، فى الفراغ الواسع ، جاز ... جاز ، وللنداء صدى ملىء برغبة لاتفسير لها ومنذرة .

وظهرت عربة الجاز فجأة أمامى ، قريبة جدا منى ، فى التقاطع العريض ،

بجسمها الاسطوانى الصغير الملون بالاحمر ، وعليها رسم شق الصدفة المفتوحة ، والكتابة الممتدة على بطنها ، ويجرها حصان واحد بطيء أصهب ، منكس الرأس ، مغمّى العينين ، وعجلاتها الكبيرة باستدارتها الخشبية المرتفعة حتى وسطها المنتفخ ، دوارة على مهل تترك خطين غائرين فى الرمل ، وهى تنحدر فى طريقها الذى لاتصادف فيه أحدا ، ولايرد عليها فيه أحد .

وقلت لنفسى لابد أننا كنا فى أول الصيف ، مبكرا جدا فى الصيف ، ربما بعد عيد القيامة .

كان ذهابنا الى كابينة الشيخ مقار فى أبو قير عيدا متكررا فى كل مرة ولاضمان لمجيئه ابدا . أولا رحلة القطار المثيرة . ثم نقضى اليوم كله على الشاطيء وفى الكابينة . وبينما أبقى على الشط ، كانت أمى تذهب الى آخر البراميل فى البحر ، وتتجاوزها ، حتى لاأعود أرى منها الا نقطة سوداء . كانت تلبس المايوه الطويل الساقين الذى لايكشف الا الذراعين والنحر المدور ، وتنزل البحر مع صديقتها وكانت تسميها « حبيبتى فكتوريا » بنت القسيس البروتستنتى الصعيدى المربع الوجه بعينيه الحنونتين الماكرتين فى الوقت نفسه .

وكانت فكتوريا طويلة ونحيلة ووجهها ناعم مستطيل ينتهى بذقن كأنها منحوتة مسننة ورقيقة وعيناها مسحوبتان الى جانبى وجهها كأنهما مدببتان وبهما نظرة هادئة وصامتة جدا وصوتها دائما خافت . حتى ضحكتها كانت خفيضة ومتتابعة الايقاع . وبينما يحبك المايوه القصير الاسود أعلى ساقىّ ، وعليه القميص الحرير الابيض القديم الذى ألبسه عندما نذهب للبحر ، كنت أسمع ضحكتها من وراء خشب الغرفة المجاورة وهى تخلع ملابسها مع أمى .

كنت أحب فيكتوريا ، وأهرب منها ، خجلا ، ولا أملُّ من النظر اليها ، وأشتاق اليها جدا .

ترسبت على هذا الوجه طبقات من حب جاءت أمواجه العاصفة مرة بعد مرة وانحسرت . أنظر اليها بحب فتىّ صاف وأحس فيه مع ذلك شروخ العمر كلها .

هل كانت أمي تريد الذهاب وحدها وتتركنى مع أخواتى البنات فى البيت المزدحم فى غيط العنب ؟ وهل بكيت يومها بتلك الدموع المحبَطة المحترقة التى تسقط مع سقوط العالم نفسه ؟ وهل نسيت هذه الفاجعة المتكررة التى ماأقساها على ذلك الطفل الذى لم يكبر أبدا ؟ نسيتها بمجرد أن استدارت الاحداث ؟ وهل جريت أسحب حذائى القماش من بين الكراكيب تحت السرير ، وأبيضه بطلاء حجر التَلك المنقور فى وسطه بحفرة ناعمة من مس الخرقة المبللة بالماء ؟ وألبس بنطلونى القطيفة الاسود الذى ألبسه فى الافراح وأيام العيد ؟

كانت أرضية الممر الخشبى المظلل فى الدور العلوى من العشة تهتز تحت قدمىّ وتتأرجح قليلا ، بين سياج الشرفة التى تطل على الشارع من ناحية وأبواب الغرف المغلقة من ناحية أخرى ، وتسحرنى الشقوق الطويلة الرفيعة بين أخشاب الارضية ، خطوطا حارة من نور الظهر لو انحنيت عليها ووضعت عينى عليها لرأيت رمل الشارع تحتها .

وعندما دخلت الحمام كان يحيرنى كيف تأتى المياه الى الصنبور والحوض الصينى المثبت فى الحائط الخشبى ، والى أين تذهب مياه السيفون الذى يجهش فجأه ، يتقطع ثم يهضب بالمياه مرة واحدة ، فوارة ، متقلبة اللون .

ونزلت على درجات السلم الهشة الوعرة القائمة ، أحس خشبها البارد بباطن قدمىّ الحافيتين ، وعندما نظرت الى أعلى رأيت فيكتوريا تلف حول وسطها حزام روب الحمام ذى الوبرة الناعمة الزرقاء ، وفى قدميها شبشب بنى داكن وقديم الجلد جدا ، وساقاها السمراوان الرفيعتان ترتفعان تحت الروب الذى ينضم عليهما وتنتهيان الى العتمة الغامضة السحرية . وكان ثدياها ، فى المايوه المرتفع الرقبه بلونه

الكحلى الباهت من الشمس والماء ، صغيرين مخروطين رقيقين يبرزان مباشرة تحت قماش المايوه الذى ينسدل عليهما ويحيطهما بخفة ، دون حاجز ، فتتجسم الحلمتان بارزتين ومدورتين . ونزلت إلىّ ببطء ، كأنما بدون اهتمام . ورأيت عينيها تبتسمان . ونزلنا نتسابق . كنا جنبا الى جنب على السلم الضيق ، نجرى .

قالت لى :أنا سبقتك .. الذى سبق أكل النبق .

وضحكت ضحكتها السرية المبحوحة قليلا . فأحنيت وجهى الممتلىء فجأة بدم الخجل وجريت الى الرمل ولسعتنى حرارته .

هل كنا نزلنا ، البحر ، وعدنا ، وأكلنا ، وأنا الآن وحدى ، بعد الظهر فى الصمت الكامل ، فى الفجوة الرطبة الظليلة بين رمل الشارع وأرض الكابينة ، أقلّب فى الرمل بيدى وأحس نداوته تحت السطح المحبب ، وأفكر فى الجسم الضيق المسحوب الذى أخذته المياه بعيدا عنى ، وأنا على سيف البحر ، فى وسط خليج صغير ، مملوء بمياه شفافة بللورية النقاء تترقرق فيها خطوط متموجة كأنها مرسومة بقلم متحرك رقيق تذهب وتجىء بنعومة بين الصخور الصغيرة اللامعة التى تنحسر عنها المياه فتجف بسرعه ثم تعود فتبتل ؟

سرعان ماتحول المايوه الأزرق الباهت الى نقطة بعيدة فى البحر الواسع . وكانت أمى قد سبقتها الى مابعد البراميل ، فلم أكد أراها بين ما تثيره الامواج من زبد قليل .

كنت أقف فى وشل الماء الصافى القليل الغور وأنظر الى الجسر الخشبى الممتد الى داخل البحر على أعمدة مستديرة قصيرة من الاسمنت اللزج تنتفض عليه طحالب خضراء شفافة ، تلعب فى الماء ، وتهتز ، مخلوقات حية ، ثم تخرج من سطح الماء مبللة ممتزجة الالياف،ثم تجف فجأة وتصفرّ وتصبح يابسة كالورق القديم ، بلا حراك .

ولم يكن هناك الآن ، فى الظهر ، من يقف على الجسر بأعواد البوص وجرادل الجمبرى واللدود الصغير ، كان الجسر يمتد بخشبه الجاف بعيدا الى داخل البحر لاينتهى الى غاية .

وكانت الوحشة على الشاطىء كاملة . لم يكن هناك أحد من المستحمين فى هذا الظهر الهادىء ، وكانت الشمسيات المتناثرة المتباعدة قديمة الالوان ، تلقى بظلها على المقاعد القماشية المفتوحة الخالية ، وحتى حارس البحر بصفارته النحيلة الصوت لم يكن موجودا .

كنت وحدى لاأعرف كيف أدخل البحر الواسع العميق المخيف السحر ، ولاأعرف كيف أرجع عنه .

وكان على صفحة الرمال البيضاء آثار أقدام عصافير لم يمسسها أحد ، صغيرة واضحة محددة ، تتتابع فى خط واحد مقوس ، ثم تنقطع فجأة .

أحنيت رأسى قليلا حتى لاأخبط أرضية الكابينة من تحت ، ودخلت من بين الاعمدة الحجرية القصيرة المربعة الرمادية التى أقيمت عليها الكابينة . وكان علىّ أن أنحنى زاحفا بيدى وركبتى العاريتين على الرمل . وكانت أوراق صحف قديمة صفراء مدفونة فى الرمل تخشخش بهواء سِرّى يأتى فى تيار ساخن من الشمس فى الخارج . وكانت صفيحة الزبالة على ركن الكابينة فى الممر الضيق تفوح برائحة جافة خفيفة العطن غير مألوفة وغير مقلقة . وكنت أحس حركة الارضية فوقى تهتز قليلا من وقع الاقدام وتثيرنى صورة واضحة للساقين المسحوبتين الرقيقتين تتحركان عاريتين فى غرفة مغلقة خشبية الجدران مشعة بنور يتسلل من وراء الخشب المشقق الالواح.

وقعت يداى وهما تقلّبان الرمل على زجاجة صغيرة زرقاء مدورة البطن منقوشة بحَفْر بارز من حروف دقيقة لاأعرفها . وكنت أعرف أنها زجاجة عطر

مثل التى أجدهاعلى رخامة البوريه أمام المرآة ، عندنا فى البيت ، جنب المكحلة الفضية ذات المرود الرفيع الذى تنتفض لمرآة حواف جفنى ، وعلبة البودرة النحاس بمرآتها الصغيرة ، ودبابيس الشعر الصفراء ذات الشعبتين المتلاصقتين .

وكانت القنينة مملوءة بالرمل فأفرغتها منه ونظفتها بيدى بعناية ولهفة ، وزحفت خارجا بسرعة ، محنى الرأس ، وركبتاى تحتكان بالرمل الرطيب .

وجريت أصعد السلالم واندفعت الى غرفة الجلوس حيث كانت أمى ممددة على الكنبة الاسطنبولى ذات الشِلّت الملونة . وتوقفت لحظة ، فى انطلاق الجرى ، عندما رأيت فكتوريا جالسة على آخر الكنبة ، بجانب قدمى أمى ، مستندة بظهرها الى الوسادة الطرية وقد رفعت ذراعيها الى أعلى تسرح شعرها بحركة منتظمة الايقاع هادئة وأنثوية ، والنظرة فى عينيها بعيدة وليس فيها حزن ولاصمت ، كأنها قد تركتنا كلنا ، ولاتعرف أين هى .

اندفعت الى أمى وقلت لها : أنظرى ماذا وجدت ؟ ومددت اليها يدى بالقنينة السحرية الزرقاء اللامعة الآن من عرق يدى الممسكتين بها كأنها كنز فابتسمت أمى وقالت دون غضب : ياما جاب الغراب لأمه .. ! ولم تتناول منى الزجاجة ولم تنزل من عينى الدموع .

كنت أمشى على حافة الماء ، على سيف الشاطىء ، والعالم مهجور . وفى جسمى إنهاك طيب الحس من يقظة دماء الصبا والاحتراق تحت شمس البحر . كان الماء لم يجف بعد ، أراه يلمع على سطح الجلد فى جسمى الذى يتوهج وينبض فى حرارة منتظمة الدقات .

كانت المياه الزرقاء الصافية تحت قدمى قليلة العمق ، تكاد تكون ساكنة الا من رقرقة خافتة بطيئة النغم ، فيها انفساح السماء المقلوبة المحبوسة ، أعمق قليلا فى زرقتها من الخواء الشاسع المنير بالشمس ، وتمتزج بمهد الرمل الناعم الذى

لم تكد تترك قدماى فى سطحه أى أثر ، أملس هادىء الصفحة ، من جديد . انتزعت رجلى من هذه السماء التحتية ، ووضعت قدمى المبتلتين على أولى السلالم الرخامية وهى تتسايل باهتزاز رقيق وكأنها مكسورة،اذ ترتفع فجأة من جِلد المياه الشفافة التى لاتكاد ترى . كان الرخام الابيض الغنى فى نعومة النبيذ ، وعراقته . وكانت حواف الدرجات المتصاعدة فى دوران خفيف لايكاد يحس ، تدخل من جديد ناحية البحر فى انحناءة واسعة وهى ترقى نحو السماء المحرقة ، درجةً بعد درجة ، سامقة ، فى غير تعجل ، برخامها اللين المتماسك الرقة،فى إهابه ثغرات صغيرة مفتوحة تزيده نعومة . وقد جففته الشمس ، ويتبخر الماء القليل الذى تتركه قدماى عليه ، غشاء سرعان مايتطاير لايكاد يترك أثرا أكثر دكنة من لون الرخام الذى يزداد سطوعا ، وأحس سخونته تحت قدمى كلما صعدت ، وكلما جفت شيئا فشيئا آخر قطرات الماء التى تبلل قدمى .

كان فى صعودى على هذه السلالم التى لاتنتهى لهفة وتطلع وخفة ، كأننى سوف أجد شيئا لاأعرفه ، لكننى شديد الشوق اليه ، يثيرنى ، هناك ، فى قلب زرقة السماء الخفيفة .

ووصلت الى آخر درجة فى السلم ، دون جهد ، كأن شيئا يحملنى ، بل دون أن أحس ، حتى ، أن هناك شيئا كان يحملنى ، بقوة خارجية ومنبثقة عنى فى وقت معا . وكان البحر تحتى بعيدا ، ساحق البعد ، والامواج تصطدم دون صوت من فرط بعدها ، والزبد المتقلب فى خط متعرج صغير الفوران يذوب فى زرقة مخضرة بالقرب من الشاطىء .

كانت الدرجة الاخيرة واسعة ، لاتستند الى شىء ، مفتوحة ، توحى بسهولةِ الانزلاق والسقوط ، وفى الوقت نفسه ليس فيها خطر ولا أدنى تهديد ، كأن الانحدار منها الى سطح البحر الذى يترقرق ، عميقا ، بعيد الغور ، تحت ، سيكون أقرب الى هبوطٍ لا وزن له وبلا ثقل ولا صدمة . وكان رخامها مصقولا ومدورا ليست فيه الثغرات الخفيفة التى كانت تقل تدريجيا كلما صعدت ، حتى عادت اليه نضارته ، جديدا ، وساخنا ، وكامل الملاسة .

وكان الاحساس بالرخام الحار فيه متعة ، وكأنه يرد ، بمجرد هذه الحرارة البضة ، على تَطَلُّبٍ خاص للجسم الذى يلتصق به وتنتقل اليه حرارته الممتدّة ويستجيب الى حنانه الانثوى الصامت بمتعة مستغرقة صامتة ، تترقرق وتمتلىء ، وتنطوى على السماء ومياه البحر البعيدة ووقدة الشمس الفسيحة المشتعلة بهدوء ، وتلتصق باستدارات هينة وطيعة ، وتجيش وتحتشد وتتضخم ، حتى تنفجر . ويتطاير قرص الشمس المحترق مِزَقاً تغوص فى بطن الزرقة فى طعنات متناثرة متطاولة الاصداء ، وتذوب . ويعود نور الظهر صاحيا أبيض صامت اللون .

•

انتهيت الى آخر الشارع ، وتركت خلفى آخر عشة . وكنت أحس أن دم الشباب مازال يجرى فى سنوات أخيرة ، وكانت محطة السكة الحديد تبدو صغيرة وبعيدة وساكنة ، كأنها لعبة ، من وراء الكنيسة ، وعلى الجانب الآخر أرى شواشى غابة ضيقة من النخل ، متطاولة فى خط منحن ، غارقة تكاد تغوص بين ربوتين متموجتين من الرمل الابيض ، لايعلو منها الا رؤوس السعف التى لا تكاد تهتز .

وقفت فى فسحة من الرمل تبدو غير نظيفة ، وأكوام من القمامة ترتفع وتتناثر فى غير انتظام ليس فيها الا رائحة عذوبة عطنة هينة ، وقلت لنفسى ان الزبالة عندنا ليست صعبة على التحلل ، فماذا نترك للزبالة ، نحن ؟ ورأيت مع ذلك علب الكوكاكولا الحمراء المقشرة الصفيح ، وعلب السفن آب الجديدة الزرقاء المهشمة ، وأكياسا من النايلون الممزق عليها اعلانات الويسكى والسجاير الباهتة ، وسنان شظايا زجاجية ناتئة من بين أوراق الصحف، وقماش مايوه نسائى قديم ممزق ورث النسيج .

وفى أول الخلاء المطل على امتداد الصحراء ، وراء قضبان السكة الحديد ، كانت تقف سيارات النقل الضخمة ، حمولة ١٠ طن ، عجلاتها هائلة الاستدارة وسوداء وكثيفة المطاط وقد غاص جزء منها ، بثقلها المكين ، فى الرمل الصلب . محركاتها تدور بدمدمة منتظمة الايقاع ، وقد تركها سائقوها والتفوا فى

حلقة صغيرة بستراتهم الجلدية المستوردة وكوفياتهم التى تدور بأعناق قوية ، وأحدهم يضع طاقية بيضاء مدورة على شعره الطويل . وكانوا يدخنون . وسجائرهم يتصاعد منها ، فى هدوء المصيف الشتوى ، دخان خفيف الزرقة ، ولايتحدثون .

كانت السيارات مثقلة بحمولات مختلطة من الاسمنت والكتب والورق والطوب وأسياخ من الحديد فى رصات مشعثة الحواف ، متفاوتة ، تخرج منها أطراف القضبان الرفيعة فى تقوسات حادة تنذر بمقدرة سهلة على الاختراق والتمزيق . ومع أننى كنت بعيداً جداً فقد أدرت رأسى كأننى أتجنبها ، وتوقفت .

وغير بعيد رأيت أمين شرطة صغير السن . نحيل ورياضى الجسم ، والكاب على رأسه الحليق ، ومسدسه فى جرابه الجلدى الداكن . كان يقف وقفة ملل . وجهه جامد فيه غضب مكتوم ، وعيناه لاتنظران الى شيء . ووراءه مخبران بالمعاطف الطويلة والاحذية الميرى العالية ، عاريىْ الرأس ، كل منهما يمسك خيرزانة رفيعة يضرب بها جانب معطفه بحركات منتظمة .

كانت العشش كلها مقفلة ، ورائى . وقد سقطت على واجهاتها أغطية الحصير المضفور مثبتة على الارض بحلقات حديدية ضخمة الاستدارة وصدئة وخشنة المظهر . والشمس الشتوية التى تغيب تلقى ظلالا طويلة على الطرقات الرملية المهجورة . كنت أتلفت بلهفة ، فى وقفتى بلا حراك ، ولم يعد هناك غيرى فى نهاية هذا العالم الرملى . أنتظر بلهفة أن يأتى أحد كأنما بنجدة من خطر لاأعرفه ، أن يظهر أحد ، فيحمل معه الأنس والالفة والأمن بمجرد ظهوره ، أن يرتفع صوت ، أو نداء ، أو صرخة . ولايأتى أحد .

ليس هناك الا حفيف أمواج البحر ، متكررة ، عنيدة الايقاع ، بعيدة جدا .

كان العمال الصعايدة يدورون حول السيارات فى مجموعات صغيرة ، ينزلون رصات القضبان الحديدية . ويسقط الحديد فى هديد مكتوم ويشق على الفور خطوطا طويلة فى الارض الرملية . أكياس الاسمنت المغبرة من الخارج بترابها الابيض الذى طُمِست الكتابة عليها ، فلا تبدو الا حروف باهتة « بورتلاند » بالانجليزية ، يعتلها صعيدى متين الظهر ركب السيارة وقد وضع زكيبة قديمة على نفسه يحمى بها رأسه وجسمه ، ويجعلها تنزلق من على ظهره المشدود فيتلقفها زملاؤه ، تحت ،مرفوعى الاذرع ، متوترين ، ويلقونها على الحديد . وكان يجمع من تحتها أكواما مضطربة من الكتب والمجلات والاوراق مختلفة الاحجام والاشكال مهوشة ، ويلقيها اليهم ، فتسقط الكتب من أيديهم على الرمل وتتمزق أغلفتها التى بهتت ألوانها ، وتتطاير من بينها أوراق جديدة مصقولة وقديمة ومصفرة ومطبوعة ومكتوبة بخطوط غريبة ، وبالآلة الكاتبة ، كأنها مراسلات حكومية أو رسائل حب أو مسودات محاضرات ورأيت أعدادا قديمة من مجلة الفكاهة والهلال وكل شيء والمقتطف واللطائف المصورة و المجلة والكاتب والكواكب ، بأغلفتها وأحجامها المتفاوتة الالوان ، وصورها ورسومها المثيرة للحنان . وكان الصعايدة يقذفون بالاكوام بعضها فوق البعض ، وتتهشم الكتب والاوراق . قوالب الطوب الحمراء أحسها تحتك بالايدى الخشنة ، وهم ينقلونها بسرعة ، أربعات أربعات ، ويرمونها على الكتب والاسمنت والرمل والحديد ، فتنكسر شظايا جافة رفيعة من حوافها المستقيمة .

وكانوا جميعا صامتين . ليس هناك الا صوت الحديد يصطك بجانب السيارة وهو ينزلق الى تحت ويخبط الرمل ، وخشخشة الورق ، واحتكاك أكياس الاسمنت وجفاف الطوب ، ولا أحد يتكلم .

وقلت لنفسى : أين غناء الصعايدة البهيج ورنات الشجن البعيد الذى فيه ، عندما يعتلون أثقال الدنيا ، ويحطونها ؟ .

ولم أسمع صوت ماقلت لنفسى .


أردت بحافز لاعج لايقاوم ، أن أقترب من حلقة السائقين . وعرفت معرفة يأس كامل انهم لايرونني ، ولو اتجهت اليهم بالحديث لما سمعوني . وأردت أن أتحرك اليهم مع ذلك . وقدماى الحافيتان المبلولتان بماء البحر تدوران فى الرمل تحفران بدورانهما البطىء الثقيل حفرة عميقة مصممة ، ولاتتحركان .

انبعثت أولى ألسنة النيران من بين الاكوام . وكان فى الهواء النقى رائحة نفاذة حريفة . وزحف اللهب بطيئا ومتوجسا وحذرا فى الاوّل ، ثم تلوى ، بثقة أكبر ، وغاص مرة واحدة حتى اختفى ولم يعد يظهر له أثر بين الحديد والاسمنت . ثم انبثق فجأة ، فى قلب لهفتى ، من الناحية الاخرى ، فوق الطوب الذى رأيت لونه يسوَدّ قليلا . ورأيت النيران تأخذ كل مجدها وكانت عفيّة ولها سطوة . وصوتها يشقشق ، ولها قرقعات سريعة متلاحقة ، ودخان الورق له رائحة الجير المحترق .

ورأيت أغلفة « ساعات الكبرياء » الحمراء اللون تبيضّ بين ألسنة اللهب وأوراقها البيضاء تنثنى على نفسها وتسقط أطرافها محموشة بالنار . وسمعت أصوات أصدقاء قدامى لم أرهم من زمن وكان فيهم من يعيش الآن فى لندن وباريس وهارفارد ، وكان فيهم صديق كنت أحبه ومات منذ قليل بسرطان فى الرأس وصديق مات منذ عشرين سنة غريقا فى العجمى ، وكانت فيكتوريا تجرى معهم ، بالروب الازرق الناصل الوبرة ، وكانوا كثيرين . وكانوا يجرون وراء أشياء ليست سهلة المنال . كانوا يجرون ناحيتى ، وناحية النار ، ويتنادون بطلب النجدة ، وتليفون المطافىء ، وجرادل من ماء البحر ، وأصوات أخرى تقول لا فائدة .

ثم انفجرت النيران فى دوى ساطع النور .

على الحافة



أرى المئذنة القديمة ترتفع ، بصعوبة ، فوق أنقاض الجامع الذى لم يبق من جدرانه العريقة الا أكوام من أحجار ضخمة . وعلى حافة شرفتها المكسورة ، قريبا جداً منى ، أمام عينى ، يقف الغراب ، أسود اللون تماما . حتى منقاره المدبب كان حالك السواد ، مطبقا .

وانتظرت ، وأنا أكاد ألمس بيدى دقات قلبى ، فلم ينعق الغراب .
كان راسخا ومطوى الجناحين ، كأنه حجر ، لولا أن عينيه تتقدان بنار مركزة.فصان من جوهر دجّى .

وتجيش فى قلبى فتنة ، ونفرة . ولكننى مرصود .
كنت قريبا جدا ، لأول مرة بهذه القربى ، من شىء له كل هذه الغرابة ، وكل هذه الألفة معا . كأنما كنا معا فى حلقة مضروبة علينا ، بلا فكاك .

وعرفت أننى عدت الى غمرة سنوات الحب الاخرس وأشواق الصبا التى

لا مثيل لنور سذاجتها ، أن تكون هذه الارض هى أرض العدالة وأن تعود الى الناس .

كنت قد خرجت الى جسر النيل ، فى عز الظهر ، ومجد الامواج الحمراء يتقلب فى عرامة الفيضان . السماء المحترقة بالنور ، والاشجار الهفهافة ، وبيوت الفلاحين المكومة ، كلها معقودة أمام عنفوان هذا الانصباب الذى يدمدم بين جسوره العالية فيفرض على كل شيء مهابته .

وكانت الغربان تعرف ، مثلى ، شجرة السنط الوحيدة على رأس الجسر الحجرى الممتد قليلا الى داخل النهر . كانت المعدية الصغيرة تخرج منه الى الشط الآخر البعيد فى التحاريق . اما الآن ، وحتى تخفت غضبة الفيضان ، فهى مقلوبة على بطنها ، مترِبة .

كنت أتسلق جذع الشجرة المتلوى وأنتزع السائل اللزج من جلدها العتيق فيتماسك قوامه بسرعه بين يدى ، بعد أن أجرحها فى رفق ، كأنها جراح الحب . وكانت الغربان تأوى الى فروعها النحيلة ، وتتنادى بصرخات لم يكن يخيفنى نعيبها ، وتخفق بأجنحتها السوداء ، سحابات حية . وكأن هذه الغربان فهمت ، وكأنها تسخر من نفسها معى . لكننا لم نكن قط أصدقاء . وكان الغراب الحالك السواد هو شيخها ، ويعرفنى .

أقف ، بلا حراك ، تحت المئذنة لا أستطيع ان أحول بصرى عن الغراب ، وحدنا فى العالم كله .

فى جدار المئذنة نافذة دائرية منقورة فى الحجر الكثيف ، سدت بألواح من الخشب الخشن ودقت عليها المسامير . ورأيت قريبا منى جدا ، صدأ الرؤوس الحديدية الغليظة تآكلت حوافها ، وألياف الخشب القديم قد اسودت بطبقات من تراب المقطم وعادم السيارات . الهلال المعدنى بعيد فوق ذؤابة المئذنة ، معوج القوس . كأننى سمعت نفسى أقول لنفسى : سقطت كبرياؤه .

وثب الغراب الضخم ، على غير انتظار ، دون أن تصطفق جناحاه ، دون أن يبسطهما ، واصطدم ، دون صوت ، بالخشب الذى يسد النافذة ، وغاب فيها ، اخترقها ، دون أن ينفتح له فيها أدنى شرخ . مازالت النافذه مسدودة .

صلصلت أجراس مترو حلوان وهو يتدحرج على قضبانه ، بقلقلةٍ يهزم هديدها فجأة وأعرف بلا دهشة أنه يتجه الى المقابر . نفثت السيارات المتلاصقة المقتحمة بمقدماتها فى كل اتجاه ، نافذة الصبر . الحوذى القصير المتين يشب على عربته الكارو التى تنوء بأسياخ حديد التسليح المشعثة ، ويثبت قدميه بمقدمة العربة المتأرجحة ويشد العنان ليوقف حصانه الكثيف الكفل . الحصان المغمى العينين يزفر فجأة فى صدمة الكبح التى لا تطاق . الناس ينسكبون سيلا واحدا بلا انتهاء ، فرادى ولكن فى مجموعات متدافعة ينثالون ، كالعجين الكثيف ، بين السيارات وجنب خيل العربات وفوق القضبان وعبر الأرصفة وتحت الدكاكين وعلى أبواب البيوت ، فى الحر والعرق والتراب وضجة النهار المتنافرة الأصوات .

فى قلب هذا الانهمار من زحمة الناس ، عالم آخر ، منفصل ولكنه وثيق الصلة بنياط قلبى ، أعرف أنه عالمى الذى ليس لى غيره . فقط أحس بضغطه يزداد فداحة وأعرف أننى لا أريد الخلاص من هذا الثقل .

وقبل أن تندّ عن حلقى المسدود صرخة كابوس الفجر المعتادة التى أعرف أنها قادمة الآن ، تبدأ متحشرجة ، ثم تنفجر ، تدوى فى الصمت بجنون لا يعى شيئا ، بجموح يهتز له أول الصباح ، قبل أن ينفلت الوحش المتربص دائما فى قلبى يكسر شرخا فى جداره بصيحة زئيره المتصلة ، وجدت نفسى أسقط فجأة ، درجة كاملة من درجات هذا العالم . لم أترك المئذنة القديمة ولا ضجيج الناس المحتشد وكنت ، فى الوقت نفسه ، فى مساء الطرانة ومعى لنده ، أمام الغيطان .

ولاول مرة وحدنا ، نسير على جسر النيل ، ونعرف ان الحقول حوالينا خالية . الحدأ والغربان تطوف فوقنا فى السماء الحارة التى تستروح طراوة الغروب .

وكنا معا ، دون كلام ، نسترق النظر الى الغيطان ، نستوثق أنه ليس فيها أحد من الفلاحين . كنا قد خرجنا وحدنا دون أن نقول لأحد . وكنت أحس فى هذا مايشبه الجريمة أو المروق ، على الاقل . ولو عرف الاهل فماذا يمكن أن يحدث ؟ كان هذا الخوف يحفز القلب ، والمغامرة غير محسوبة الوقائع .

كان التراب الهش يثور تحت أقدامنا فى هبوات ترتفع قليلا ثم تنعقد لها سحابات صغيرة حول أرجلنا ، وكانت هجسات مولد الصبا الصعب تملأ نفسى برغبات لها ثقل يهبط ببطء كأنما لن يصل أبدا الى قرار .

كانت لنده تدفع بساقيها فى الشبشب الذى يبدو ثقيلا وأجنبيا وغير مستقر فى قدميها ، فقد كانت تمشى ، عادة ، حافية .

وقلت لنفسى : ومع ذلك فقد كان أبوها صرافا محترما ولها أولاد عم فى الهندسة والزراعة .

وكانت كل يوم تغسل قدميها وتحكهما بالحجر الخفاف حتى يحمر الجلد ويعود الى نعومته . دخلت مرة الى بيتهم فى الليل ، وكانت عارية الساقين أمام الطشت وبيدها الابريق . ورأيت نعومة ساقيها كأنما أحسستها بعينى . وعندما كنا نجرى ونحن نلعب عساكر وحرامية مع أولاد العائلة وبناتها ، كنت أتعمد أن ألمس قدميها بقدمى الحافيتين أيضا .

كانت لها ضحكة من القلب تنطلق دون عناء ، من فيض السعادة بالشباب . ضحكة بنت تشتعل بنضج أنوثتها . بينما كنت لا أعرف كيف أضحك .

كنا ننزل الآن ، نكاد نتدحرج ونقع ، بسرعة متزايدة الايقاع ، من حافة الجسر الى فسحة من الارض على الشط مباشرة . وسمعت غرغرة المياه الحمراء وهى

ترتفع بالفيضان ، كأنها محسوسة ، تحت شقوق الارض التى تتسع رقعة البلل فيها . غدا سوف تغيب تحت المياه المتصاعدة .

كان المغرب ساكتا الا من نعيب الغربان على شجرة السنط العالية ، يصل الينا من بعيد . وكانت هذه الناحية من الجسر على غير طريق عودة البهائم من مرعاها فهى صامتة وموحشة ، وكنت أحس الغيطان منهكة بعد صهد النهار . شواشي الذرة لها وشوشة وحفيف لا يكاد يستبين .

وكأنما على هذا الجسر نفسه ، وكأنما على مقربة من شجرة السنط هذه نفسها ، وقف محرك السيارة فجأة وهبط طنينه الى الصمت . كان الطريق فى أول الليل سخنا من حر يونيو الثقيل ، يمتد بين سور منخفض وبيوت المقابر التى تبدو مبهمة ملتبسة ، أبوابها الحديدية على شكل غصون متعرجة وأزهار يومض من بينها المغيب القاتم . وامتدادات الارض تتناثر عليها الشواهد القائمة والمائلة ، والمكعبات المحدبة ، مصفوفة ومتناثرة ، أطول قليلا من الجسم المدفون ، وبينها فراغات مرهوبة . وكانت القباب العالية من ورائها كتلا من المعمار كأنما لا وزن لها ، تسبح ، داكنة ، بازاء السماء التى تبدو خاوية وخفيفة . صخور المقطم معتمة وناتئة الحواف ، ومصابيح الشوارع الصاعدة متباعدة ، بقعا مدورة بضوئها الازرق الباهت .

عندما فتحت باب السيارة كان انتفاضها المتوتر قد خبا أخيرا . وسقطت قدمى على الطريق كأنما بلا انتظار ، كان الطريق أخفض قليلا مما توقعت ، وثارت تحت خطوتى عفرة صغيرة ظلت معلقة حول ساقى ، ونفضت رجل البنطلون وسمعت السائق :

– قرنى بيته بعيد يابيه .. والسيارة ليست لها سكة هنا بعد الآن.

قلت : لا يهم .. نسير على أرجلنا .. يالله بنا .. على بركة الله .
ثم قلت : المهم أن نعثر على المفتاح .

وفكرت ان أمامى ليلة طويلة من العمل ، من وراء زجاج النوافذ المسدلة عليها ستائر سوداء متهافتة القماش . وقلت لنفسى ان البرقيات يجب أن تصدر فى الصباح ، من غير جدوى ، الى كل العناوين فى مشارق الارض ومغاربها تستصرخ بيأس صادق وتعلات كاذبة ، وفكرت ان الصحراء فى هذا الليل بلا رحمة ، وكنت أمقت السماء وهى تنقضّ على جسمى الذى لامنعة فيه ، فى هذا العراء .

لم نكن قد عثرنا على المفتاح ، وقلنا ان هناك نسخة منه مع الخفير الذى يسكن فى بيوت المقابر ، وقلنا نذهب اليه اذن ، ثم نستدعى دورية السهر بالتليفون بعد أن نعود . وكنت أعرف وأنا على أول طريق المقابر الموحش أننا لم نرسل البرقيات قط فى الصباح التالى ، وكنت عندئذ أحس أنفاس القاهرة المحبوسة تَردد فى صدرى والمدينة أصبحت شاسعة صامتة كما لم أعرفها تصمت أبدا ، والاوتوبيسات الثقيلة الحمراء تنطلق بهوج فى الشوارع الساكتة وتميل بجانبها من السرعة ، نصفها فارغ وركابها لا يتكلمون . وكنت أرى الهواء الذى يخشخش بورق الصحف والتراب الخفيف على الاسفلت . كانت الميكروفونات تردد فى هذا الصمت بيانات ميتة لا يسمعها أحد . كان توقع وصول المساء يثقل القلوب بعبء قابض .

ووقفت من جديد تحت شجرة السنط القديمة وقد غلظ جذعها ، وثقلت فروعها وتراكبت ، وهى الآن تصعد من تراب الجسر الذى لم يعد يدك بالحجر والطوب وظهرت فيه حفر هشة ، وامتد الى جانبه طريق جديد مسفلت فى وسطه خط عريض من أثر جريان عجلات السيارات ، وعليه أعمدة رفيعة فى كل منها مصباح كهربى واحد صغير أصفر مشتعل فى عز النهار . كان النيل قد روض الآن ، وصمت ، وينسكب نحيلا ومنخفضا . وقلت لنفسى هل انقضى فعلا عصر الرؤى ، وانكسرت ؟ ، وقلت لنفسى : لا أعرف بعد كيف أخلص من الاحلام الرثة ، وقوالب الكلام .

كانت قد جفت قشرة هذه الاحلام وتخمرت عجينتها الدفينة ، وكنت

أحســها دفيئة وموجعة كجراح الحب . ومددت يدى الى الشجرة العجوز وعرفت أن عصارتها قد يبست ، طالما صنعت من كرياتها ملء زجاجات الصمغ عاما بعد عام ، ألصق بها فى كراسات المدرسة صور دستيويفسكى وعرابى والطهطاوى وكيتس وتروتسكى وشكسبير .

كانت الشجرة مهجورة ليس عليها غراب واحد ولا تدور حولها العصافير الصغيرة القلقة التى لم أعرف أبدا ما اسمها .

فاجأنى السكون المطبق على كل شىء . جسر النيل ، وسعة الغيطان ، وحوارى القرية ، وحنفية الماء المكرر الذى يتقطر على التراب ، كلها صامتة الآن .

أزيز عجلات سيارة فيات لامعة تمرق فجأة بجانبى كأنها تسير فى فلك خاص محاذ للنيل ولكن لا صلة بينهما . سلسلة من سيارات النقل المرتفعة الجدارن لها مقطورات مسطحة ، حمولتها مربوطة بحبال قوية ، وفوقها حمال خاسف الجسم نائم كأن عظامه مكسورة ، ومكومة ، يطير الهواء بجلبابه الذى لا لون له .

كان هذا الصمت منذرا . لم أرى فى السماء الحدأ المترصدة التى كانت تحلق فى دوائرها الواسعة ، ولا الهداهد التى كانت تنتقل بسرعة من الغيطان الى الشجر ، ولا مجمع الغربان .

وسمعت نفسى أسأل : أين الطيور ؟ أين هدهد سليمان ؟

وقال قريبى وهو الآن فى بكالوريوس العلوم : طبعا ياسيدى اختفت .. المبيدات الحشرية .

وطاف بذهنى من غير مناسبة أنه فى الاحلام تأتى كلمات وأفكار كل يوم ، وكأننا فى الحلم نزجى وقتا مملا بكلمات لا نقصد منها شيئا .

وقلت لنفسى : قطن الحكومة له ضريبة فادحة .

عندما وصلنا الى عجلة الساقية القديمة المرمية على الارض ، جلسنا على خشبة عريضة مترية ، أحد طرفيها مرتفع يستند الى حجر كبير ساقط من الجسر ، والطرف الآخر يهبط الى الارض ، وقد نال من الخشب عطب ، فتحللت عضلاته ، ولكن بقى عودها قوى الأسر . العجلة الضخمة تكاد تسقط على جنبها ، فى توازن يمكن أن يكون منذرا لولا أنه عريق الثبات ، غاص جانب منها فى الطين الجاف ، فى هذا الوضع الغريب ، فى هذا الغروب الغريب ، برهبة الاشياء المهجورة التى يرودها حضور غامض . مياه النيل العريض تصطفق بصوت اصطدمات مائية متعاقبة ومتغيرة الايقاع فيخفق لها قلبى فى توجس وفرح ، وتنعكس السماء على الطمى الداكن الاحمرار . انحسر طرف جلابيتها عن كاحليها اللذين أدهشتنى دقتهما ونعومتهما ، وأثارتنى ، وهى تجلس ، وتسوى نفسها على انحدار الخشبة فيبرز أعلى فخذها من وراء الجلابية مدورا ومحبوكا يبدو لعينى غض الملمس . وفى نور المغرب رأيت وجنتيها متضرجتين بنار نضرة . وكانت أنفاسها متسارعة ، وهى صامتة على غير عادتها ، وعيناها تلمعان بسواد ساطع . كان هذا غير الاحمر الذى أعرف أنها تصنعه عندما تبلل قطعة حمراء من القماش المشبك تبيعها البلانة لصبايا القرية ونسوانها فيبللنه بالريق ويمسحن به الخدود والشفاه . وكان ذلك هو زواقها يوم الاحد عندما تأتى الى الكنيسة . وكنت أعرف أن أمها تدعو عليها وتستمطر لها التوبة من الله عن هذه النيلة التى تعملها فى نفسها ، وتدعو لها بالعَدَل وابن الحلال الذى يكفيها ويشكمها ، وأنها هى تحلف بحياة الصليب أن هذا اللون ربانى وماذنبها فيه ، ثم توقد شمعة أخرى للاستغفار من الحنث بيمين الصليب ، وتصلى بحرقة وتترقرق عيناها بالدموع فى القداس .

وسمعتها وهى تقول : أنت ستعود الى الاسكندرية بعد قليل أو كثير ، فى آخر الصيف ، لتذهب للمدرسة . أهذا ضرورى ، المدرسة ؟ لماذا لا تشتغل ، وتكسب ؟ ولم أجرؤ على فهم ماتقول . كانت جلابيتها الفلاحى الملونة تسقط الآن على جسمها المتوفز ، كأنها حيوان فى عز فتوته . كانت فعلا حيوانا أنثويا فى

عنفوان الشباب . وفكرت انها تكبرنى على الاقل بثلاث أو أربع سنوات . وقلت لنفسى ان هذا لايهم .

وكأننى رددت عليها : أشتغل ، أنا ؟
وسمعتها تقول : آه تشتغل ، وتأخذ ماتريد . ألست رجلا كالرجال الذين يشتغلون ، ويكسبون ؟

ولم يكن قد خطر ببالى أننى لست كالرجال الذين يشتغلون ويكسبون . ولكننى لم أكن أعرف كيف أجيب . وكنت أعرف أننى هنا فى نطاق خاص لارد عليه ، يخالف كل ماأعرفه . وخيل الى أننى قلت : عندما آخذ التوجيهية ، وبعدها الجامعة أيضا سأشتغل طبعا .

وسمعتها تضحك وعرفت فى ضحكتها مرارة لا شأن لها بى : يوه .. موت ياحمار ... لغاية مايجى لك العليق .... ! .

ورأيتها تقوم فجأة ، وانسدلت جلابيتها على جسمها الذى توتر بيقظة مفاجئة وهى تصعد الجسر الوعر برشاقتها النافرة ، وردفاها يتحركان فى ايقاع متناوب سريع ، وهى تمد ذراعيها بتوازن حرج ، وأرى ، وأنا تحت ، صدرها الذى لا يسنده شيء يهتز وهى ترقى الجسر ، وتثب الى سلامة حافته .

وأنا ايضا أتسنم انحدار الجسر لا أصل أبدا الى أعلاه ، خطواتى لا تنتهى أبدا والسماء عالية ، ولا تبدو لى غرابة على الاطلاق فى هذا الصعود المتصل الذى لا بطء ولا سرعة فيه ، كأننى لا أتحرك ، وكأن الجسرماينى يزداد علوا كلما واصلت الارتفاع عليه ، لا دهشة ولا تساؤل ، بل ارهاق طويل . كنت أعرف ، فى هذا الصعود الذى لا أكسب فيه ولاأخسر أرضا ولازمناً ، ان نسخة الاهرام الوحيدة سوف تصل الى القرية بقطار بعد الظهر وسوف يأتى بها ساعى البريد الطواف على حماره الميرى الابيض ، وسوف أقرأ فى آخر هذا الصيف ، ان

تشيكوسلوفاكيا قد سقطت ، وكنت أنا ايضا ، كأقربائى الفلاحين ، أجد صعوبة فى نطق اسم هذه البلد الصغيرة البعيدة ، وكنت أرى حروف المطبعة الكبيرة المسطحة فى العناوين الممدودة بالاحمر على عرض الصفحة الاولى ، ونص اعلان الحرب على المانيا ، بتوقيع الملك جورج السادس .

أرى الحرس العسكرى يقف باناقة وجمود ، على باب مينا هاوس ، وسيارات الجيب العسكرية وعليها المدافع الرشاشة مصوبة الى الشارع . ولوريات الامن المركزى فى الظلام مكتظة بالجنود ، غامضة المعالم وثقيلة .

دخلت من الباب الزجاجى العريض المائى النسيج ، الانوار الملونة المعلقة فى السقف بحلقاتها الصفيح المخبوءة بمكر الصنعة تسقط على السجاد والبلاط الرخامى الفسيح . منصات الموجنى المصقولة ، هرير التليفونات وأصواتها النسائية بالانجليزية والعربية ، المقاعد المنخفضة تغوص فيها أمريكيات سيقانهن عظميّة مكشوفة ، وعرب بالعقال السعودى والطاقية الكويتية المخرمة والجلاليب الحريرية التى تتخايل من ورائها أرجلهم الدقيقة فيما يشبه بذاءة لا تكاد تلحظ ، عيونهم المسدودة تحت حواجب عميقة السواد تطل من وجوه فى لون الزيتون ، والسفرجية بطرابيشهم وأحزمتهم الحمراء يتحركون حركات الدمى ، البوتيكات وشركات الطيران خالية وأنوارها متقدة ، كأنها منسية ، من وراء الابواب الزجاجية المغلقة ، وآلات التكرز من وراء الابواب الشفافة تدق بخفقات معدنية موزونة الموسيقى وأرى مصابيحها الصغيرة مشتعلة بنار صفراء .

كنت أسير عبر الردهة الباذخة لا تحتجزنى ومضاتها كأننى أعرف طريقى .

كانت الصهاريج الالومنيوم الهائلة تطن ، وتفح بخارا ساخنا فى سحابات بيضاء لها وشيش ممتلىء يخبو ليصعد من جديد ، فى دقات منتظمة . وكانت المراجل المتينة القوام تغلى بنيران كهربية تصدمنى قوتها لا تنفرج ، والانابيب

الضخمة تمتد فى خطوط مستقيمة الزوايا وترتفع حتى تخترق السقف الشاهق ، ومنصات المطبخ الحديدية عليها خطوط بارزة تسيل بزيت شفاف . كنت أبحث عن شيء أعرف أننى لن أجده هنا أبدا مع ذلك ، وأواصل البحث فى لهفة . ولم يكن من الممكن أن أسأل الطباخين بقاماتهم الطويلة وقبعاتهم القماشية البيضاء العالية وقد تهدلت قليلا من الحر والبخار ، وهم يعكفون على طواجن نحاسية ضخمة كأنها أقواس دائرية مُقْتَطعة من خزانات البترول التى نجدها بالقرب من محطات السكة الحديد ، يقلبون مافيها بمغارف خشبية طويلة ، داكنة من البلل ، ووجوهم لا تعبير عليها .

واندفعت ، فى بحثى ، بين الطباخين الذين لم يشعروا بى ، كأننى أصلا لست هناك ، الى هذه المواعين اللامعة الجدران . وانحنيت عليها ، كأنما أنتظر أن أجد فى داخلها ما أنشده .

الطيور الضخمة التى تعدّ للوجبات العامة ، مسلوخة ، منتوفة الريش ، مشدودة الجلد . أعرف أنها حية ، ماتزال . وتنبض . تغوص قليلا فى عجينة كالمايونيز طرية مصفرة ، كثيفة ، ولها رؤوس مقلوبة على وجوهها تتحرك حركة واهنة ، عيونها مدفونة فى العجين المتخمر بفقاعات كبيرة تتضخم ثم تنفجر بصوت بذىء ، ولها من الخلف انحناءات مألوفة ، حليقة ومدورة ، تنتهى الى أعناق شبه بشرية ، ظهورها نصف الغارقة تنتهى الى سيقان مدكوكة العضل ملوية عند الركبة ، لا يبدو غير نصفها العلوى . وكان انسحابها الانثوى غضاً وله جاذبية تقبض الاحشاء ، تحت استدارة الارداف المليئة نصفها فوق العجين ونصفها غارق فيه . الافران الضخمة تئز تحتها ، والعجينة تغلى وتفور ، والاطراف شبه البشرية تبدو كأفخاذ بدينة سخنة ، يلتقطها الطباخون بمغارفهم فتنفصل بسهولة عن المفاصل ، كأنها من غير عظام ، ويقذفون بها الى الصهاريج التى تنفث سحابات البخار ، وعندما ترتفع فى الهواء كانت أقدامها تبدو ناعمة الجلد وأصابعها وادعة ومثيرة .

ورجعت ، أجرى هادىء الانفاس ، لم أجد ما أبحث عنه .

وفى هذا العالم السفلى وصلت الى المصعد الواسع الذى لا باب ولا سقف له ، أرضه من أعواد الخشب المتجاورة على حديد مسطح ، وبها لزوجة من أثر الشحم والدهن القديم . هبط المصعد بى فى بئره المعتمة العميقة القرار ، حباله المعدنية المضفورة ، أمام عينى ، تهتز فى توتر مستمر النبض ، حتى خبط بالقاع فجأة فى هديد مكتوم ، وخرجت من كسر مفتوح فى جدار رقيق منفصل ، مقام على طوبة واحدة .

مازالت أجرى فى حقل لا نهاية له من التراب الموحل . الانقاض حولى ترتفع وتنحدر فى أكوام هائلة متتابعة حتى مدى البصر . قضبان حديدية ، كأنها شرائط ورق ، تخترق هدد الاحجار المتساقطة بالتواءات مدببة وكأنها حية مازالت ترتعش ، وتطعن السماء الداكنة الحمرة . أطراف الافق ، عند النيل ، تشتعل بدخان بنفسجى قاتم كثيف الاحتراق .

لم يكن لجسمى وزن وأنا أصعد وأهبط فوق الآكام وفى بطون الارض . الاتوبيسات كأنها صغيرة نصفها مازال يبدو فى نور السماء أحمر اللون بقذارته المعتادة ومحركاته المكشوفة ، وقد قذف بها فوق ركام الحجر والحديد مقلوبة ومنبعجة وظهورها قد خسفت ومقاعدها نائتة تخترق زجاج النوافذ العريضة الذى لم ينكسر . أرضية كوبرى ٦ أكتوبر العلوى قد انقلبت وأصبحت فى امتدادها الرأسى النحيل حائطا عموديا يقف فى عرضٍ النيل ، سقطت كتل الاسمنت الضخمة مازالت متلاصقة ولكنها تنبسط جداراً رفيعا يشق السماء ، انزلقت عليها السيارات وهى تنقلب ، وغاصت فى النيل ، لا يدل عليها الا فقاعات من الهواء تنفجر بهدوء على المياه السوداء .

ويبدو كوبرى قصر النيل قريبا منى ، مكسورا من منتصفه كأنه مقطوع بسكين حادة ، مازال نصفه مستويا يهتز أقل اهتزاز ، سياجه معلق ، بأعمدته الرقيقة القصيرة ، لا يحيط بشىء ، فى الفراغ ، فوق الامواج القاتمة الخضرة وعليها حلقات متكاثفة الورق من نبات ورد النيل الغليظ . برج القاهره يميل بارزا من

بين النباتات ، يمتد من الجسر الى قلب النيل ، يبدو مسدودا وتتموج حوله دوامات صغيرة ، وبجانب طرفه الساقط على الأرض تتأرجح فى مياه الشط معدية سليمة الاخشاب وكاملة وفيها مجدافان ، يرقد فيها المراكبى وزوجته وأولاده ، هادئين ، كأنهم نائمون ، ومازال وابور الجاز مشتعلا يفح ، وبجانبه طبخة سمك لن يأكلها الآن أحد .

ورأيت الكورنيش وميدان التحرير ومبنى الاتحاد الاشتراكى القديم والهيلتون الجديد ومبنى ماسبيرو العريض المستدير بأبراجه وأعمدته اللاسلكية كلها قد تحولت بضربة دمار كاملة الى هدم وحطام . ربوات صامتة ومظلمة فى حقل موحل يهبط الى وهدات غائرة . البيوت القديمة بمشربياتها المتهاوية مازالت قائمة ، ومازال الغسيل منشورا عليها ، فى وسط امتداد الانقاض التى تنبسط فى تلال مضطربة بين الكبارى الساقطة،وعلامات النيون المقطوعة ماتزال تشتعل بالاخضر والاحمر من غير جدوى ، حتى ميدان رمسيس ومحطة باب الحديد . والتمثال العظيم منكفىء وجهه فى التراب ، تنبثق من فوقه اندفاعات المياه الرفيعة الخطوط من نافورة مازالت تعمل بانتظام وآلية ، تحت احتراق السماء الكئيب .

ورأيت فى وسط بركة من الماء الاحمر الساكن وجه لنده ، مقطوعا وهادئا ومازالت على شفتيها ابتسامة صغيرة كأنها تحلم أو تسخر ، وشعرها الأسود الناعم الطويل ، من تحت المدورة البيضاء المغضنة ، يطفو فوق سطح الماء الضحل ، تهتز خصلاته الرقيقة اهتزازا صغير التموجات . وقلت لنفسى : أوفيليا الفلاحة التى لم أفهمها .

وكانت تتحرك فى الطين أفراس البحر ، سوداء الجلد غليظة القوام ، أفواهها مفلطحة ولها خراطيم تتحرك كالشفاه وتتماس فى بحث بطىء عن لمسات كأنها قبلات ، ولها أصوات كأنها لغة . وجاش قلبى بالبكاء ، أخيرا ، وانهار ، عندما سمعت منها نبرات من كلمات خيل الى أننى أعرفها ، كلمات من لغة قديمة عذبة نسيتها ، ولكننى كنت أعرفها ، وكأنها تبحث عن حنان ، عن شوق ،

تدرك أنه مفقود ، وتدرك أنه كان هناك ، وأنه لا ينتزع ولا يموت حتى فى ظلمة الاحشاء المرضوضة .

وكنت أسمع انفجارات صغيرة متقطعة لها أصداء موحشة ، طلقات بنادق ودمدمة مدافع رشاشة وقرقعة قنابل يدوية ، متناثرة ، تلوح كأنها لن تنقطع .

وكنت أعرف أنهم تحت ، هناك . يتحركون وسط الاجهزة ويحركون الاشياء فى أنفاق محفورة على أعماق بعيدة فى الارض ، مصمتة ومعزولة تماما ، منيرة بضوء معدنى باهر ثابت الدرجة لا ينطفىء ولا يصدر عن مصابيح بل تشع به الجدران المنسابة المصقولة ، وتحميها مدكات هائلة الحجم من الاسمنت والحديد عليها أقواس الرادار التى ما تفتأ تدور بلا توقف . وكأنهم هم أيضا من معدن أسود . عيونهم مدورة ، ثابتة ، أجسامهم محسوبة وعقولهم تنبض بذبذبة منتظمة الايقاع متصلة ولا تغفو . وكنت أعرف أنهم هناك ، تحت ، آلات فيها حياة ، فى قلب هذه الآليات الضخمة التى فيها حياة ، خططوها لانفسهم وبأنفسهم تخطيطا لا يناله أدنى خطأ فى التصميم ، وهم مع ذلك خائفون .

وفى الليل ، وتحت قرقعات تمزق لحم السماء الميت بطعنات لها ضوء عقيم ، كانت أقدام الناس تدوس فوق الحطام ، وكان هديرهم المدمدم فى الظلام يصل الى قلبى فيملؤه ، ويفيض بالماء الداكن القديم . وعندما عدنا بالسيارة فى الفجر المظلل بغمام ساخن كان طوفان الناس يغرق شوارع المدينة المتهدمة بالجلاليب والقمصان والبنطلونات ، والفلاحات بالملس الاسود ، والرؤوس الحليقة الصلبة العظام التى سهرت طول الليل فى زحمة القطارات، تطفو متلاحقة بين واجهات البيوت الكالحة ، ووراء أحجار السلالم المنهارة ، وحول العمود الجرانيتى المستقيم المستدير الذى يرتفع ، لم ينله خدش وقمته مازالت خاوية . ورأيت بينهم من يحمل فأسه ومقطفه على كتفه ، وهو يلبس جلابيته الوحيدة المتغضنة المغسولة . وكانت الكلمات المكتوبة بخط سريع وملهوج على لا فتات القماش والخشب والورق المقوى ، وصور الرجل التى لا عداد لها ، ماثلة ومنتصبة ، تعوم

فوق الطوفان ، تبدو من كثرتها كأنها لا تقول شيئا ، وكانت الاوتوبيسات الحمراء خفيفة الوزن الآن تفرغ حمولتها فى ميدان التحرير وتعود بسرعة من أى طريق الى خطوط السكة الحديد فى ميدان المحطة الفسيح الخراب ، وكأنها تسابق موعداً قد أزف ، بل فات .

كنت أسمع هديد الاقدام تخوض فى المياه القليلة الغور وتستند الى أنقاض الاحجار التى غاصت فى الطين .

وأعرف أنه لن يوقفهم شيء ، وأنهم ينصبوُّن فى أعداد لا تنتهى ، وأنهم صامتون الآن .

محطة السكة الحديد ٣

محطة السكة الحديد (٣)

أرصفة السكة الحديد تمتد ، متينة ومظلمة ، متجاورة بلا نهاية . عريضة وخالية . والسماء المعتمة فوق شاسعة ومنفصلة . الليل الذى فيها لن ينجاب . والنجوم ثابتة صغيرة ، لن تذوب فى أى فجر .

أسال نفسى لماذا هذا الخواء فى هذا العالم الذى ليس لى غيره ولا أعرف كيف أخرج منه .

لا أعرف أين الباب .

أعرف أنه لابد أن يكون هناك ، ولكننى لا أعرف طريقا اليه ، أى طريق . كأننى خرجت من تحت سقف المحطة الزجاجى العالى ، وكأن أمى وأخواتى البنات الأصغر منى قد خلت منهن المحطة ، وتركتنى وحدى . أتلفت حولى ، تحت ضغط اللهفة المحكوم الهادىء ، ولا أرى سور المحطة من وراء الارصفة المتكررة ، رصيفا بعد رصيف على يمينى وعلى شمالى ، بلا آخر . القضبان الحديدية بينها ساقطة على الارض ، مدورة متلوية ومستقيمة ، متشابكة ومتوازية ، عيناى تعرفان مدى صلابتها التى لايمكن أن تنكسر ، شديدة اللمعان من فرط

احتكاك العجلات الدوارة بها ليل نهار ، الأقراص الحديدية الهائلة لا تقضم منها جذاذة ولا تصنع شرخا ، بل تزيدها عنادا . والقطارات الضخمة سوداء ، مربوطة بلا جدوى بقاطراتها الهامدة ، لا أعرف مَن فيها .

يجب على أن أجد الشباك الذى أقطع منه تذكرتى . شبابيك التذاكر حولى من وراء قضبانها الوثيقة المتقاربة ، منيرة ولكن مغلقة ، ليس فيها وجه ، ليس فيها أمل . والوقت يفوت ، والساعات الكبيرة المدورة الوجوه ممسوحة ليس فيها عقارب . ولا أجد من أسأله .

كنت أعرف أن باباً هناك تحت ممر واسع ومرتفع ودائرى العقد والهواء فيه نظيف فى وسط جدار المحطة الداخلى السامق العريض الاحجار ، وأنه مغلق الضلفتين ومصنوع من الحديد الرقيق المشغول ، أطرافه المدببة على شكل السهام المرشوقة فى أعلاه مطلية بالذهب ، ولا يفتح الا عندما يأتى الملك فى قطاره الابيض ذى الشرفات المزركشة ويفرش البساط الاحمر ويمتد تحت قدميه من عتبة القطار على طول الرصيف وعبر الباب والممر العريض المنير حتى الساحة الخارجية . وتمتلىء المحطة بالجنود والزهور فى صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شىء . ولا يقف عمال الابواب على رؤوس الارصفة عند الحاجز الحديدى المنخفض ، لايثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدى الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج ، فلا يمكن ان تدخل أو تخرج الآن . مرة واحدة لمحته من بعيد ، الملك ، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين بجلاليبهم وطرابيشهم وعمائمهم وشيلانهم وربطات العنق الرفيعة الضيقة الخناق ، ورأيت اهتزاز ذيل السموكنج الطويل الذى يلبسه على جسمه الثقيل ، غريبا على ساقيه الممتلئين ، وجانبا من وجهة المحتقن المزدحم بالدم ، وشاربه القائم بذؤابتين رفيعتين مشدودتين بالكوزماتيك المشمع . كان أبى يقبض على يدى ، بقوة ، ونحن نخرج فى الزحام وأشم الرائحة الحريفة من معطفه وسجائره ورجولته ، وهو يمسك بعصاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقبض الابيض المحفور بزخرفة عرفت عندما كبرت أنها اسمه « قلته فلتس » من العاج المخروم . كان فى ميدان المحطة قرة قول من

تلاميذ المدرسة الحربية بالشريط الاحمر الذى يشق البنطلون الداكن الضيق المستقيم حتى تحت الحذاء الاستيك اللميع ، وبلوك من الجيش البريطانى، وموسيقى القرب الاسكتلندية بأصواتها الثاقبة المملة ، والجونلات ذات الطيات المتعددة ، وقطرات العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها . والموسيقى النحاسية تضرب بقرقعات بهيجة وايقاع واحد لا يتغير . وجندى قصير يحمل طبلا ضخما على بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف ، كأنه وحده فى العالم .

جنود بلوك النظام ينزلون جريا من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب ، على سلالم قصيرة مثبتة فى مؤخرة السيارات ، ويطاردوننا ، بقمصانهم الطويلة المهدلة ، وسراويلهم تنزل الى مافوق الركبة بقليل ، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف الألشين الكاكى الرمادية التى ترتفع الى ما تحت الركبة بقليل . ونحن نجرى فى ميدان المحطة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون وقد توقفت ، واحدة بعد الأخرى ، على خطوطها ، والناس ينظرون منها بفضول . وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا الينا . وكنت أهتف ولا أسمع صوتى : تحيا فلسطين . يسقط وعد بلفور . الاستقلال التام .. حملت العَلَمَ ياعبد الحكم .. الشمس حارة فى دمائنا ونحن نجرى . والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا ، والعصى القصيرة فى أيديهم . وكانت الشتائم موجعة جدا . والغضب يلغى العالم ولاينجاب أبدا .

كان الجدار الخارجى الجانبى للمحطة ، أمام باب الدرجة الاولى ، يرتفع حتى الشارع العلوى ، تتخطر عليه عربات الحنطور التى تبدو صغيرة ، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت ، فوانيسها النحاسية الامامية بزجاجها المصقول المكعب السطوح كأنه معمول من ماس كثيف ونقى ، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة تتقد فى النهار . وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقى رشيقة . وكنت أنظر الى اعلانات « شركة الادرياتيك وتريستا للسفريات والملاحة » والباخرة تمخر مياه الحلم المتموجة بزرقة فاتحة الصبغة ، دون أن تتحرك ، مستقيمة الخطوط وهفهافة الريح فى وقت معا ، ثابتة فى سرعتها الساكنة

التى لا زمن فيها ، ونوافذها ، فى البطن المسطح بصفحته المستوية ، فتحات كاملة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم الشفافية .

كنت أرقب الدبور الذى صنعته من ورق كراسات المدرسة ، مدببا أبيض حاد المقدمة ، أشد طيرانه بالخيط الطائر فى السماء ، بحزم ورفق ، فوق رؤوس النخل ، وأنا على سطح بيتنا فى غيط العنب . وقلت لنفسى بفرح اننى عندما أكبر جدا ، وأصبح فى العشرين،سوف أسافر فى بعثة ، كما سافر رفاعة رافع الطهطاوى ، الى مارسيليا ، وأركب البحر على باخرة شركة الادرياتيك وتريستا ، وأعرف فنون الحرية فى باريس كما لم يعرفها أحد فى مصر قط . وكنت أعرف أننى لم أركب هذا البحر ، ولم أخر عباب هذه الحرية ، وأن القلب الطفلى مازال يطفو فوق أحلامه القديمة وإن كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة .

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة ، لأقدامى عليها رنين معدنى ، كسلالم الحريق . سياجه الدائرى يهبط معى الى دور سفلى فى المحطة معقدة المسالك ، خاويا أيضا ، متكرر الارصفة ، أيضا ، بلا نهاية . والسماء نفسها فوق ، وفوق الارصفة العلوية الأخرى ، منفصلة ماتزال ، لا يهب فيها النسيم .

وأجد أمامى المصعد الكبير الذى ينزلق على بابه الحديدى المصمت ، بهدوء وثقة ، فى مجراه المحفور ، ويصطك بالجدار المعدنى بصوت ثقيل ، نهائى ، وفى الهبوط البطىء أحس فى قلبى الروع الذى يريد أن ينفجر . هذا الباب لن ينفتح علىّ قط . لن يسمع أحد صوتى عندما أنادى النجدة . لن ينجدنى العالم .

وتسكت حركة المصعد الفسيح ، وتمر ثانية واحدة ، كأنها لن تمر ، من الصمت التام . الباب مغلق ، لاينبض .

ثم يرتعش الباب ببطء ، على الرغم منه ، وينزلق مفتوحا .

وأفلتّ منه كأنما خرجت من قبر ذى أصداء ، مُضىء بمصباح كهربى مدور تتحلق به شبكة اسطوانية من الاسلاك الحديدية عليها سحابة ضعيفة الحركة من الهاموش .

تمتد أمامى الارصفة المتكررة المفتوحة مرة أخرى . وتزداد السماء وليلها الملتبس ابتعادا . الادوار العلوية ، دوراً فوق دور ، مدكّات شاهقة من الاسمنت مغلفة بأحجار البازلت اللامعة .

لاأريد الاستسلام للفزع الذى فى ساق ، لاأريد أن أجرى فى شوط لاأعرف له وجهة ولانهاية . أرفض اليقين الذى فى جسمى باننى ضللت الى الابد بين هذه الامتدادات الشاسعة من الارصفة المتعاقبة والمتقاطعة والمتراكبة ، بين أسوار البازلت الشاهقة ، ترتفع عليها مصاعد البضاعة الهائلة وتسقط مغلقة الابواب .

العناد ، كاليأس ، لاينكسر .

صفارة القطارة تنطلق فجأة فى الصمت المعتم الرحيب الذى تقطعه مصابيح عالية صغيرة . ويتردد لهذا الصوت الوحيد صدى أجوف الصدر ، يصطدم بالسقف الزجاجى المحدب البعيد ، قضبانه العلوية المتشابكة فى نسق هندسى رقيق التصميم ، تبدو مفصلاتها القوية العضل هشة وحساسة أمام عينى المرفوعتين .

والقطار يتخم نفسى ، أخيرا ، بدقاته الرتيبة ، مرى أخرى كأنها دائما هى المرة الأولى . وهو ينطلق فى نور الظهر القاسى ، بايقاعه المتراوح الذى يتضخم وينفجر فى خبطة مكتومة ، ثم يهبط . يتضخم ، ويمتلىء ويقرقع فى هَدّةٍ مكبوحة ، ثم يخفت . هزيمه المتصل المتناوب الصدمات يصطفق فى داخلى ، دون هوادة ، فى عزم ليس له انقطاع .

أسأل نفسى السؤال الممزِّق ، وأنا صامت ، جامد الجوارح : أين يقف هذا القطار ؟ واذا وقف ، فيكف أعرف أنها محطتى ؟ .

ايقاع دقات العجلات على القطار ، منتظما ، لايفرغ ، وطنين المحرك الملىء بالقوة ، لايبالى شيئا ، هو صمت خاص .

الزجاج المحكم على السخونة المفهافة فى العربة المكيفة الهواء يبدو منيعا ، لايُخترق .

وكأنما على الرغم منى ارتفعت يدى ، لاأملك لها ردا ، تبحث وتتلمس بلهفة مضغوطة ، متطلّبة . يدى تريد أن تجد مقبضا أمسك به ، مفتاحا أديره ، زرا كهربيا أضغط عليه ، حلقة معدنية أجذبها ، أريد أن أفتح الزجاج ، أنشقَ الهواء البارد الذى أراه يهز أشجار الغيطان وعيدان الذرة ، أعرف نسمته المتربة المُحِيية . لاأُنال .

جدار القطار المعدنى ، منبسطا وناعما ، ليس فيه أدنى خدش ولانتوء ، ولايقطع سطحه المصمت شىء . والستائر الكريتون الصفراء بلون المستردة الغامق تنسدل على جانبى الزجاج بريئة ، بيتيّة ، أحس فيها مع ذلك قصدا خبيئا ، وهى مصنوعة بمكر وأناقة متكررة ، كلها متطابقة .

ترتفع يدى مرة بعدة مرة ، بارادة خاصة ، أكابد الحيرة التى لا تنقضى . وأجاهد حتى لاتبدو علىّ هذه المكابدة الوحيدة ، فأسترق النظر الى الركاب الصامتين ، كل منهم وحده أيضا . حتى الازواج والرفقاء ، متفارقين، وأعرف أنهم يسترقون النظر الىّ ، فى أعينهم اتهام غير معلن ، مترصد ، هل ينتظرون اللحظة التى يفصحون فيها عن شىء كالاثم قد اقترفته ، لاأعرف ماكنهه ، لكننى أعرف انه هناك . وأفاجىء نفسى بالسخرية من نفسى : تظن نفسك من أصحاب الآثام ، وتظن ذلك بطولة مقلوبة على وجهها ، من غير شريك ؟ والشركة فى الاثم

لاهى تبرئك ولاهى تمجدك .

وقلت لنفسى ليس بين هؤلاء الذين يركبون معى من يثير الاهتمام .

هذه المجموعة المعتادة من ركاب الديزل الدرجة الثانية المكيف : أواسط كبار الموظفين بعيونهم المتورمة وذقونهم المتهدلة اللحم وحقائبهم السمسونايت الاصلى والمقلدة التى تحمل أوراق الادارة أو الشركة أو تصميمات المشروعات المربحة للجميع ، وضباط الجيش الشبان ، والذين ليسوا شبانا جدا ، بملابسهم الكاكى المكوية وقد خلعوا الكاب ووضعوه على الرف العلوى المزدحم بحقائب جديدة صغيرة ومتوسطةوبأكياس النايلون المنبعجة بما فيها ، والزوجات — أو غير الزوجات — المنهكات جفّت النيران الوجيزة التى عرفنها بسرعة ، مكحولات ومصقولات الخدود وشفاههن داكنة الاحمرار بالماكياج المستورد ، صدورهن المشدودة لم تعد لها جدوى ، والمقاولون ، والسماسرة والتجار ورجال الوكالات وشركات التصدير وخصوصا الاستيراد ، لاتخطئهم العين ، ملابسهم غالية ولكنها مازالت توحى بالجلابية الحرير والقفطان الشاهى والمعطف البلدى ، عيونهم صلبة ومعدنية . وقلت لنفسى لا ، لايهموننى ، لست منهم . وأعرف أننى لاأختلف عنهم فى شيء ولعلهم يعرفون أننى معهم . وقلت لنفسى لا ، لست منهم ، لست أنا . ثم قلت لنفسى ومع ذلك فأنت هنا ، معهم ، فى قطار واحد ، وعربة مكيفة الهواء واحدة ، وسوف ينتهى القطار بنا جميعا الى محطة واحدة . ويداى تحترقان فجأة برغبة لاجدوى منها فى أن أجد مفتاحا يشق انسداد هذا الزجاج المغلق علىّ وعليهم . ورأيت فأس الحريق الحمراء الصغيرة ، فى صندوق زجاجى مغلق بإطار معدنى من الالومنيوم الثقيل ومعها تعليمات مطبوعة عن كيفية استخدامها عند اندلاع النار . أين رأيت هذه الفأس ؟ هل يمنعوننى من النزول عندما تأتى محطتى ؟ وماهى محطتى ؟ هل يعرفون أننى ليس معى تذكرة ، يعنى أنه لامكان لى هنا ، فى حقيقة الامر ؟ وهل هذا صحيح ؟ لا أذكر هل اشتريت تذكرة ، ولا أريد أن أبحث عنها الآن فى جيوبى ، فى المحفظة ، بين صفحات مذكرة الجيب ، لاأريد أن أثير شبهاتهم ، لاأريد أن أستدعى اتهامهم ، لاأريد أن أستفز هجومهم .

لست أخافهم ، صحيح ، صحيح ، لكن ماالداعى لأنواع من سوء الفهم وتخبط المقاصد ؟ سأنتظر حتى يأتى المفتش وتنتهى المسألة ، إما أن أجد التذكرة أو أدفع الثمن مضاعفا ، والغرامة وبدل التكييف والدمغة والرسوم . أم أن المفتشين يرفضون قبول الثمن ، ينتظرون حتى الوصول الى أول محطة ، ويأخذون المسافر الذى اقتحم القطار الى مكتب الناظر .. لكى .. ماهى الكلمة ؟ ... لكى ... لكى ... يُطوَّق ... نعم هذه الكلمة . يُطوَّق ، أو يحبس .. لا .. لا .. كان هذا من زمان .. فى طفولتى . أليس كذلك ؟ لم يعد الامر الآن على هذا النحو . لم هذا الفزع المستكن لايريم ، بذرة أثرية قابلة للانفجار ، لاتريد أن تنفجر عن شجرتها السامة ، ولاتريد أن تموت ؟ غريب أنّ المفتش لم يجيء حتى الآن . لابد أننا سافرنا ساعات وساعات . هذا القطار مباشر صحيح ، لايعرّج على المحطات الوسطى . إلام يذهب ؟ ماالمحطة التى يجب علىّ أن أنزل فيها ؟ عندما تأتى سوف أتعرف عليها ، سوف أعرفها . سوف أعرف اسمها . من شكل الارصفة ، وشبابيك التذاكر ، والابواب الجانبية ، والسقف ، سوف أعرفها ، من نداءات الحمالين ، ممن ينتظرون . يجب أن أعرفها .

كان القطار قد ارتفع فجأه فوق جسره ، يتسنم طريقا له وحده . وهبطت الاشجار تحت ، ورأيت ذؤاباتها الكثيفة تنوس برشاقة غير إنسانية ، موسيقية . خبطات القطار قد ازدادت عمقا ، ولها صدى ، وهو يشق السماء المحايدة المحجوزة وراء الزجاج المسدود . حدائق البرتقال تمتد تحت الجسر ، تبدو نائمة ، شجرها قصير ومدور وخضرتها داكنة والحبات الصفراء المخضرة مرشوقة فى الكثافة التى تنضم عليها ، بنهم ، كأنها ملصقة هناك ، غير حقيقية ، فواكه الشمع التى كنا نضعها فى فسحة بيتنا وأنا صغير ، كأنها ملصقة هناك ، غير حقيقية ، خداعة ، لاتؤكل ولارائحة لها . وعلى حواف الجنائن أشجار الموز القميئة ، مفلطحة الاجنحة ، عقيمة ، تآكلت أطراف ورقها العريض الذى يتهدل هش النسيج . والطرق تنشعب ، تحت جسر السكة الحديد ، الى مفترقات وممرات ضيقة بين الغيطان الصفراء المحشوشة الزرع . والبرك الصغيرة ، تحت أسوار حجرية تعلوها أسلاك حديدية مدببة تحيط بخربات مهجورة فيها طوب وكتل من

الاسمنت ولافتات زرقاء واسعة تحمل بالحروف الانجليزية والعربية أسماء شركات وبنوك ايرانية وسعودية مصرية مشتركة ونوايا مصانع لأجهزة التكييف وثلاجات للخضر والدواجن ومناطق حرة للتصدير والتوريد ، وربوة مضطربة الارتفاع تأتى فجأة وعليها الشواهد ومكعبات القبور المحدبة جديدة التلوين ، تحت شجر الجميز العتيق .

وخطفت تحت بصرى فجأة ، على حافة الترعة البطيئة الجريان ، سيارة مرسيدس واقفة متنمرة ، فاجرة اللمعان تحت ورق الموز المسطح الجاف . وبالقرب منها نساء سمينات وجوههن كالخزف الاملس ، مشقوقة الافواه والعيون ، يأكلن بتصميم وصمت من طواجن متعددة ، يجلسن على ملاءة سرير وردية اللون مفروشة على تراب الغيط ، وأيديهن لاتتوقف تحمل قطعا كبيرة من ا للحم والخبز الملىء بالطبيخ الى الافواه المصبوغة ، وكانت أفخاذهن عارية وسمراء وكثيفة فى جلستهن على الأرض . وأولادهن يتحلقون حول الطواجن وترامس الماء الكبيرة البطون . وبينهم فلاحات عجائز ، كأن أجسامهن خشبية ، بالطُرَح السوداء الجديدة ، يقفن غير بعيد ، بلا حركة . اندفع القطار ، وارتفعت وجوه النساء التى ، الافواه تتحرك ، والعيون جامدة من اللذة المكررة المعتادة ، واختفين وراء القطار .

نافذة القطار المزدحم مفتوحة ، وانا أقف بين الناس والقفف واللفف والربط والسلال والحقائب الكرتون المقوى المصبوغ بلون الجلد ، أضع قدماً واحدة على أرض القطار المهتز ، وأستند بذراع أثقلها التعب والتوتر على مسند المقعد الخشبى وراء رؤوس الفلاحين وأولاد البلد المتلاصقين باللِبَد والطواقى والطرابيش ، وقدمى الأخرى مرفوعة محشورة بين السيقان والشنط والكراكيب التى يكتظ بها ممر العربة . الريّاح يجرى تحت القطار بمياهه الحمراء عفيّة العضلات ، أمواجه الصغيرة تسابق القطار ، وتتقلب عليها كتل صغيرة من الطين والقش والأعواد الخضراء . هواء العصر فى هذا اليوم من أواخر سبتمبر يهب على وجهى ، باردا وقويا ، من النافذة الخشبية المفتوحة ، ويدخل بنفث الدخان الدقيق الذى أحس ذراته الرقيقة السوداء على يدى وأعلى صدرى تحت القميص غير المكوى المفتوح من غير كرافته ،والجاكته الصوف الجاهزة . الأشعة البيضاء شامخة ، فوق أجسام

المراكب المدببة الصدر ، ثابتة الجريان على مياه الترعة التى تبدو فجأة ضيقة ومزدحمة .

قرقعة القطار تتوقف ، والافندى ، بجانبى ، يتحدث بثقة من تحت شاربه الكث ومن كرشه الكبير ، ويقول لفتى اسكندرانى أمامه ، ملوّح الوجه وأزرق العينين ، باللاسه اللامعة واللباس الاسود الواسع المتهدل الطيات ، ان الحكومة عملت وزارة جديدة اسمها وزارة التموين ، وسوف تعطى الناس كوبانات للجاز ، وبطاقات ، دفاتر صغيرة مخصوصة يعنى ، فيها أسماء العائلة وتصرف لهم السكر والزيت بها . وامرأة ممتلئة القوام فى مِلاءتها التى تراخت على كتفها ، وكشفت عن صدرها النازل من فتحة فستانها الواسعة ، مصمصت بفمها الشهوانى ورفعت حاجبيها المحفوفين ، قوسين رفيعين على عينيها اللامعتين من الالتصاق بأجسام الرجال ، تحت قمطة شعرها المحبوكة على جبهتها المدورة ، وسألت كيف تترك الواحدة أسماء ضناها ، اسم الله عليهم ، عند الحكومة والبقالين ومن يسوى ومن لايسوى ؟ هذا لايرضى ربنا ، حتى . ونظرت الى الولد الاسكندرانى العترة الى جانبها ، بطمع صريح . وتذكرت أمى . وكانت صحوة رجولتى الجديدة مذنِبة . وكان جسمى كله مشدوداً من الوقفة المتزعزعة والزحمة واليقظة فى الفجر وركوب الحمار مع أختىّ الصغيرتين وانتظار القطار الفرعى فى محطة كفر داود الذى يتوقف كل خمس دقائق ، ثم الانتظار فى محطة ايتاى البارود للحاق بقطار الاسكندرية . ولم نكن قد أكلنا الا القراقيش التى عملتها لنا جدتى باللبن الرايب والزبدة ، وأوصتنى على أخواتى ودعت لى بأن يكتب لى فى كل خطوة سلامة وأن يحوطنى ، بحق ابنه يسوع ، ببركة الصليب ، فى كل مطرح أحط فيه رجلى ، وقبّلتنى على خدى بشفتيها الجافتين . وشممت رائحة الحطب والخبيز من طرحتها السوداء وهى تضع حولى ذراعيها الصغيرتين .

أستند بجزء من ظهرى الى القفة الكبيرة التى وضعنا فيها الوزة المذبوحة المنتوفة الريش ، والقراقيش ، وصفيحة الزبدة التى سوف تسيّحها أمى لتعمل منها السَمْنة والمورتة ، وأستند بجزء من جنبى الى حقيبتنا الكبيرة التى ربطنا فوقها ،

بدوبارة غليظة ، لحافنا القديم . ولم يكن اللحاف نظيفا جدا ، كنا قد تغطينا به منذ كنا صغارا جدا أنا وأخواتى ، عاما بعد عام . والهواء يندفع من نافذة القطار فيفضح رائحة اللحاف ، الفتاة التى تجلس أمامى ملتصقة جدا بأختى من ناحية ، وبالستّ العجوز المهدمة التى لابد أنها أمها ، أو خالتها ، من ناحية أخرى ، تحوّل وجهها عن الحقيبة كلما انحرف القطار فى طريقه فاشتد تيار الهواء . وأحس العرق الخفيف يخز وجهى بفتات دخان القطار الدقيق . وكان وجهها جميلا وسمرتها صافية وحيّة . وعيناها حادتان متقلبتان بموج صغير فاتح الخضرة . وجسمها المزحوم يبدو لعينى قويا ومتوفزا ، مدور البطن . وكان صدرها كبيرا ومحبوكا ومثيرا . وتنظر الىّ ، ولا أجرؤ على فهم ماتقول عيناها . وقلت لنفسى هل هى تلميذة بالثانوى تعود للمدرسة ، مثلنا ؟ أو بائعة فى صيدناوى ، مثلا ، أو هانو ؟ وسرحت فى قصة عن انها تحب ولدا مثلها وانه يحبها ويشتاق اليها . وقالت لى فجأة بصوت غاضب ألا أستطيع أن أزحزح هذا من أمامها ؟ ألم يكن هناك مكان آخر أضعه فيها ؟ وأصابعها المكتنزة الدقيقة الاطراف بعيدة كأنها تحترق ، جارحة ، ربطة اللحاف التى يضطرها الزحام أن تضغط بساقها عليه . فرددت عليها بصوت هادىء ومؤدب ومثقف اننى متأسف.ولكن الامر لم يكن بيدى فقالت بصوت حار وثاقب ان هذا غيرممكن وغير لائق حتى ووجدت نفسى أجيب بصوت مستثار ومستفز أنها ترى بعينها هذه الزحمة وأنها لو تستطيع أن تجد طريقة فلتتفضل بأن تقولها،وقالت هذه الربطة هل يعنى من نصيبها أن توضع أمامها ، وماهذه الربطة ؟ أهذا يصح يعنى ؟ ولم أتنبه الى أن سؤالها كان سؤالاً حميما . وكانت عيناها الآن مشتعلتين وكان صوتى الآن عدوانيا ومهاجما وأنا أقول انه يجب أن نتحمل بعضنا ساعة زمن على أقل تقدير واننى لست السبب فى قيام الحرب وزحمة القطارات وان المسألة ليست مايليق ومالا يليق بل مسألة ظروف لانتحكم فيها ، وضبطت نفسى أوشك أن أفلسف أخلاقيات زمن الحرب فسكتّ مرة واحدة وسكتت هى بعد أن تنبهت الى أن الناس حوالينا كانوا ينظرون الينا ، وكانت السيدة الملفوفة التى تبدو فى عنفوان نضوجها المتأخر قد مالت على الولد الاسكندرانى جارها ، تتتبع الخناقة ، ورفعت يدها تسوى مدورتها بسرعة على شعرها ، وانحدرت الملاءة السوداء على ذراعها العارية البيضاء المتموجة

المياه ، وكان جانب ثديها الآن ملتصقا بكتف الفتى وبدا كأنه محبوس وممتلىء .
وعادت قرقعة القطار تتتابع وتدق ، مرتفعة مرة أخرى ، وتُغرِق همهمة الكلام ونداءات البياعين الذين يقفزون وينحشرون بين الركاب والقفف والحقائب ، يحملون على رؤوسهم مقاطف اليوسفندى الطازة ، العشرة بقرش . واكتشفتُ فجأة وهى تنظر الىّ بعينيها الخضراوين ، فيهما غضب وفهم ، أننى متوتر وصلب جدا ، وأن بطنها دمث وراسخ ، وصدرها يهتز ، بثقة ، مع هزات القطار الرتيبة .

عندما ماتت أختى بالتيفويد فى آخر ذلك العام تذكرت نظرتها الوديعة الىّ وهى بجانب هذه الفتاة ، كأنها تغفر لى ، وتذكرت أننا لم نجد عربة حنطور تقبل أن تحملنا الى البيت من المحطة بثلاثة قروش وهى كل ماكان معى ، وأننى حملت الحقيبة وتركت لها القفة الكبيرة وكانت ثقيلة عليها ، فرفعتها وحملتها فوق رأسها ، وهى ماتزال طفلة بالكاد فى الرابعة عشرة ، وكانت نحيلة وشديدة السمرة وشعرها مجعد وعيناها فيهما شجن لاأفهمه وهادئتان ، ومسحوبتان كحبات اللوز ، وصعيدية جدا ، وكانت أقربنا شبها بأبى ، وبكيت عندما تذكرت كيف كانت تسير الى البيت بصبر وصعوبة ، أمام المقاهى والدكاكين المنيرة المزدحمة فى أول الليل ، وتقول انها ثقيلة فأقول هانت وسنصل بعد دقائق . وكانت دموعى صافية لاول مرة وعرفت أن البكاء لامعنى له وأن الألم الذى يمزق القلب شىء لاوزن له ولايجدى شيئا عند أعز الناس الى القلب . وتعلمت شيئا آخر عن الوحدة . وأنا أبكى الآن ، بعد السنوات الطويلة ، بلا ضرورة . أيضا . كنت حزينا وأنا أفكر أننى سأجد أختى تنتظرنى على الشباك وسوف أرى وجهها الصعيدى الناعم السمرة وعينيها العميقتين الخجولتين بسوادهما الذى تخفيه عنى ، وأنها ستقدم لى فنجان القهوة المضبوط الذى تعرف كيف تصنعه لى ، لكى أسهر طول الليل أنهى كتاب تاريخ الحضاره وأرده غدا للمكتبة البلدية وقلت لنفسى اننى لن أضربها على وجهها بعد الآن لانها تقرأ رواية غرامية من روايات الجيب وسأقول لها ألا تسهر تنتظرنى حتى أعود بعد منتصف الليل وبعد أن ينام كل من فى البيت وتعد لى عشائى وتسألنى اذا كنت أريد فنجان القهوه المضبوط ، لاداعى أن تسهرى ، نامى أنت ، سأعد لنفسى العشاء . وكنت أفكر ان الحزن ورقة القلب غريبة وقد

فات أوانها من زمن بعيد ، وليس لها الآن أدنى أهمية .

كان زجاج النوافذ مصمتا والستائر الكريتون الداكنة الصفرة تبدو كأنها ورق ديكور قديم وكركرة تكييف الهواء الجافة قد سكتت والناس صامتين يتحركون كأنهم مرغمون على النزول ، ضباط الجيش من غير حماسة الآن والنساء اللاتى بهت الماكياج على عيونهم المرهقة الظالمة ، والمقاولين بعد غلظة الاكل والبيرو وحسابات المكاسب العقلية وغير العقلية ، راضين جداً ومثقلين بأجسامهم التى كأنها ماتت منهم .

القطارات المنطفئة قد توقفت أخيرا فى ساحة المحطة الداخلية التى تتوقد فيها مصابيح متناثرة على أعمدة عالية ، بقعا باهتة تُسقِط ضوءا قليلا على القضبان الحديدية .وتعريشة نباتات طازجة الخضرة فى النور المصنوع ، تتسلق على جدران كشك خشبى مفتوح الباب ، ووراءها أوراق التين الشوكى العريضة الكثيفة الجسد ، أيديها ممدودة مرفوعة مدببة السِنان ، خضرتها غضة وشرسة وتوشك أن تنفجر بدمائها . أكوام تراب الفحم عالية ولامعة السواد بجانب ثمرات التين الشوكى المغلقة المستكنّة بين لفائف الخضرة . القطارات قد أُفرغت من سكانها ، ونوافذها فوّهات محترقة وعليها سواد الدخان . والدبابات الفاتحة اللون فى الليل يقظة ، ومعمورة ، خارج السور الحديدى الطويل ، مدافعها ثابتة تخترق الظلام ، مترصدة .

طلقات الرصاص بعيدة ، تتجاوب متقطعة لها أصداء تتردد بين الشوارع التى انحسر عها الناس ، فاتسعت ، تشق قلب المدينة الصامته . والبيوت خارج سور المحطة مرصوصة ومتطابقة ومسدودة النوافذ ، غارقة فى الماء ، مظلمة كلها ، أعرف أنها مغلقة على نفسها ، حقل من أزهار عباد الشمس الحجرية فى الليل طوت أوراقها القديمة الصلبة على بذورها وتضامّت أعمدتها الساقطة التيجان واقتربت بدون صوت من بعضها البعض فلم تترك بينها فسحة لاعتداء الليل .

وقع خطواتى ثابت وواثق على الحجر وأنا أرتفع ، فى الظلمة ، على حافة بناء شاهق يقف على طرف جسر ترابى يرتفع ، وتحته الماء الراكد كأنه مرآة ساكنة السطح ، مدت عليه ألواح من الخشب تصل بين الرصيف وحائط البناء المتين الاحجار . أصعد السلالم المنحوتة خارج البرج من غير سياج ، كتلا صغيرة ضيقة وعرة ، مرصوصة فوق بعضها البعض ، من حجر أبيض ثقيل الملمس تحت قدمى .

أرتقى السلالم الحجرية بعزم معقود وأساسىّ وأنا أرزح بالنشوة والغضب ، معلقا على حافة هذه السماء التى امتلأت بجسد الليل . أعرف أننى لاأستطيع النزول ، أننى لايمكن أن أنزل الآن ، وأننى أُصعد الى هذا الوجه بسمرته الصافية ، وموج عينيه ، الى هذا الجسم الناعم الراسخ الذى سيبقى معى الى يوم موتى ، وأنه لايمكن أن يفصل بينى وبينها شىء .

للمؤلف

١ – حيطان عالية	مجموعة قصص	– على نفقة المؤلف	القاهرة	١٩٥٩
		– مطبوعات القاهرة	القاهرة	١٩٨٣
٢ – ساعات الكبرياء	مجموعة قصص	دار الآداب	بيروت	١٩٧٢
٣ – رامة والتنين	رواية	ـ طبعة محدودة	القاهرة	١٩٧٩
		ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر	بيروت	١٩٨٠
٤ – القصة القصيرة فى السبعينيات	مختارات ودراسة	مطبوعات القاهرة	القاهرة	١٩٨٣

ترجمة

١ – الخطاب المفقود	ءِ.ل. كارجيالى	مسرحية	الدار المصرية للكتب القاهرة ١٩٥٧
٢ – الحرب والسلام جـ ١و٢	رواية	ليوتولستوى	الدار المصرية للكتب القاهرة ١٩٥٨
٣ – الغجرية والفارس	عدة كتّاب من رومانيا	قصص قصيرة	الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٥٨
٤ – شهر العسل المر	عدة كتّاب من ايطاليا	قصص قصيرة	كتب ثقافية القاهرة ١٩٥٩
٥ – فارالاكو	اميل سيسيه (غينيا)	رواية	الالف كتاب القاهرة ١٩٦٢
٦ – انتيجون (بالاشتراك مع الفريد فرج)	جان آنوى	مسرحية	الالف كتاب القاهرة ١٩٦٣
٧ – مشروع الحياة سيمون دى بوفوار	فرانسيس جانسون	دراسة فلسفية	دار الآداب بيروت ١٩٦٧

العنوان	المؤلف	النوع	الناشر
٨ – ميديا	جان آنوى	مسرحية	مجلة المسرح القاهرة ١٩٦٨
٩ – الوجه الأخر لامريكا	ميكائيل هارنجتون	دراسة اجتماعية	دار الآداب بيروت ١٩٦٨
١٠– تشريح جثة الاستعمار	جى دى بوشير	دراسة اجتماعية	دار الآداب بيروت ١٩٦٨
١١– الشوارع العارية	فاسكو براتولينى	رواية	دار الآداب بيروت ١٩٦٩
١٢– نحو التحرر	هربرت ماركوز	دراسة فلسفية	دار الآداب بيروت ١٩٧٢
١٣– حوريات البحر	عدة كتّاب أمريكيين	مجموعه قصص	دار الهلال القاهرة ١٩٧٩

اختناقات العشق والصباح

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت/ ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

١٢٠ قرشا مصريا